

العدد

152 - 151

السنة الثالثة عشرة

تشرين الأول - تشرين الثاني 2015

ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

رأيي صواب يحتمل الخطأ

الصواب

◆ آفاق التوافق.. وحق الاختلاف

◆ الشريعة الإسلامية .. شريعة إلهية أم بشرية؟

◆ كوردستان ومنعطفات التغيير السياسي

◆ حديث مقتضب عن العلمانية والدين

مجلة سياسية ثقافية عامة يصدرها شهرياً مكتب الإعلام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued monthly by
Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز: صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير: سالم الحاج

salimalhaj83@yahoo.com

07504499179

هيئة التحرير

سعد الزبياري saadz76@yahoo.com

نبيل فتحي حسين nabil_fathi72@yahoo.com

سرهد أحمد علي Sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني

قوباد ياسين طه tqubadyasen@yahoo.com

الموقع الإلكتروني: <http://alhiwarmagazine.blogspot.com>

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل - رحلة طيراوه / مقابل نقلبات السهمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

٤	رئيس التحرير	كلمة الحوار
٥		ملف العدد (حول تطبيق الشريعة في مجتمعات المسلمين)
١٠-٦		- مقابلة مع الأستاذ محسن عبدالحמיד
٢٣-١١	أ.محمد رشدي عبيد	- آفاق التوافق.. وحق الاختلاف
٢٩-٢٤	عزيز غفور	- الشريعة الإسلامية .. شريعة إلهية أم شريعة بشرية؟
٣٠		دراسات
٣٨-٣١	د.مصطفى عطية جمعة	- تدبير الاختلاف بين عناصر الأمة المسلمة
٤٥-٣٩	د.فرست مرعي	- اكتشاف المخطوطة القرآنية رد على شبهات قديمة.. جديدة
٥٨-٤٦	سالم بابه شيخ البرزنجي	- الزكاة في القرآن
٦٧-٥٩	د. أمين محمد سعيد وصلاح الدين أحمد	- التنمية الاقتصادية من المفهوم المادي إلى المفهوم الإنساني
٨٥-٦٨	صالح شيخو الحسيناني	- تأملات في آية الانسلاخ
٨٨-٨٦	د.أياد كامل الزبياري	- مراعاة فقه الأولويات في تطبيق الشريعة الإسلامية
٩٢-٨٩	د. أكرم فتاح سليم	- قصة الشيطان والأفلام الدينية في السينما الأمريكية
٩٧-٩٣	أثير محسن الهاشمي	- الموت في نهج البلاغة
٩٩-٩٨	عبدالباقي يوسف	عقب الكلمات / الاستدراج إلى الشنآن
١٠٠		مقالات
١٠٣-١٠١	سرهد أحمد	- كوردستان ومنعطقات التغيير السياسي
١٠٦-١٠٤	هفال عارف برواري	- مَنْ الذي أكلَ كعكة الوطن...؟
١١٠-١٠٧	أيمن عبد السميع حسن	- أيلان عبدالله كوردي
١١٣-١١١	سعد سعيد الديوهجي	- حديث مقتضب عن العلمانية والدين

- ١١٨-١١٤ رولا عبد الرؤوف حسينات - بلادي وإن جارت عليّ عزيزة
- ١٢١-١١٩ فاتن محمد - إن لم تنصت، لن ينصت لك
- ١٢٢ د. يحيى عمر ريشاوي مرفئ/ وما أدراك ما الـ(فيسبوك)؟
- ١٢٣ معالم تاريخية/
- ١٣٧-١٢٤ عبدالكريم يحيى الزبياري - على ما تبقى من قَبَّهان
- ١٣٨ ثقافة/
- ١٤٢-١٣٩ محمود حسانين - الكتابة حضور والنحسار
- ١٤٧-١٤٣ عبد المجيد إبراهيم - (الحكاية الشعبية) أهميتها عناصرها ووظائفها
- ١٥١-١٤٨ جميلة محمد - الفلكلور.. وأهمية توظيفه واستلهامه
- ١٥٢ تراجم عراقية/
- ١٥٥-١٥٣ الشيخ فائق نامق - الأستاذ نشأة غفور
- ١٥٦ قراءة في كتاب/
- ١٦٠-١٥٧ هشام بن شاوي - جذور القيم الإنسانية في الثقافة العربية
- ١٦١ صلاح سعيد أمين بصراحة/ ماذا يريدون منا؟
- ١٦٢ أخبار وتقارير
- ١٦٥-١٦٣ إعداد: الخور السياسي - أخبار
- ١٧٠-١٦٦ إعداد: الخور السياسي - تقرير: كوردستان ..أزمات واحتجاجات واضطراب سياسي
- ١٧٣-١٧١ الحوار - تقرير: (المنتدى العالمي للوسطية) يفتح فرعاً بكوردستان
- ١٧٤ محمد واني آخر الكلام / احترس من الإعلام!

كلمة العدد

معادلة حضارية!

كلمة لماذا تنهار الدول والمجتمعات، وكيف؟! لا شك أن الإجابة على مثل هذا السؤال ليست أمراً سهلاً.. فأسباب ترهل المجتمعات، وتحللها، وفشل الدول، وزوالها، تعتمد على عوامل متداخلة، ومتشابكة، بعضها له علاقة بالعامل البشري، وبعضها أسباب موضوعية تحيط بمثل هذه الدول والمجتمعات..

وإذا كان القرآن الكريم، في تفسير العوامل التي تنخر في كيان أي مجتمع، وتودي به إلى الهلاك، يربط (التزرف) بـ(الفسق)، ويجعلهما الأرضية التي عليها يتم نسج أكفان كل مجتمع ينخره المتزرفون بتحليلهم، وفسادهم، وفسقهم: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا}.. فإن علماء التاريخ، والحضارات، لا يذهبون بعيداً عن ذلك.. وقديماً التقطها (ابن خلدون)، عندما كتب في مقدمته محذراً من عواقب الظلم، باعتباره من مستلزمات التزرف: "والظلم مؤذن بزوال العمران"، مبيّناً أن الحضارات يهددها المتزرفون والمفسدون بظلمهم، مؤكداً في أكثر من موضع أن التزرف داء ينخر كيان المجتمعات، وأنه "إذا بلغ غايته، انقلب إلى الفساد"..

إن (التزرف) مولد لـ(الفسق)، وهما معاً حاضنتان قديمتان لـ(الجهل).. والجهل مطية السلاطين والحكام لاستحصال طاعة الشعوب والجماهير.. ولذلك، فإن (السلطة الفاسدة)، لا يهتمها كم تهدر من الأموال، لتسطيح الثقافة، طالما أنه يقود إلى ولاء غالبية الجماهير وتعاطفها..

ولكن هل هي ضربة لازب، أن تسعى كل سلطة إلى تجهيل الشعوب، وتفسيقها؟! وإذا قيل إن الشعوب هي التي تصنع قاداتها، وتنتج حكامها.. فهل هم (الأمراء)، من يتزفون، فينشرون الفساد، ويتحكمون برقاب شعوبهم، عن طريق (استخفافها)، وتجهيلها؟!.. أم هي الشعوب، من تميل إلى (الكفر بأنعم الله)، واتباع الشهوات، والظلم، الذي يفتح الطريق واسعاً، أمام طغاة، يتصدرون، فيزيدون الشعوب جهلاً، وإرهاقاً، وذلاً؟!..

هي معادلة حضارية شائكة!!.. ولا ننسى أن شعوباً، في عالمنا اليوم، قد تمكنت من عكس هذه المعادلة، أو تصحيحها، فقامت برسم مستقبلها، ومستقبل أجيالها، على عينها، وجعلت (الدولة)، ومؤسساتها، والقائمين عليها، موظفين كباراً، إن أحسنوا بوركوا، وإن أساءوا، أقيم عليهم الحد.. فما عاد (السلطان)، مهووساً بتجهيل الشعوب، واستخفافها.. ولا الشعوب، باتت تمحّض ولاءها، لكل عات!!.. وتلك هي عبرة التاريخ، والمستقبل..

رئيس التحرير

ملف العدد



(حول تطبيق الشريعة في مجتمعات المسلمين)

- مقابلة مع الأستاذ محسن عبد الحميد
- آفاق التوافق.. وحق الاختلاف
- الشريعة الإسلامية .. شريعة إلهية أم شريعة بشرية؟
- أ.محمد رشدي عبيد
- عزيز غفور

مقابلة مع الأستاذ محسن عبدالحميد



أجرى الحوار: رئيس التحرير

المتنوعة، والمتغيرة حسب الظروف والأحوال، التي تمثل مصالح الأمم في كل دورة نبوية جديدة، فقد ورد الحديث عنها في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ (المائدة: ٤٨). فكل شرعة، عدا الأصول المتحددة المشتركة، فإنها يعمل بها في زمانها، وتُنسخ كلياً أو جزئياً في شرعة النبي الذي يأتي بعد النبي السابق. عدا شرعة خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، فأحكامها القليلة القاطعة تبقى إلى يوم القيامة، وغير القاطعة الكثيرة تتعرض للاجتهادات الدائمة، حسب تغير الظروف والأحوال إلى يوم القيامة.

ومن هنا، واعتماداً على الآيتين السابقتين، حصل الخلاف في تعريف الشريعة، هل الأصول والفروع والاجتهادات كلها تندرج تحت مفهوم الشريعة، أم الشريعة تعني الأصول؟ والاجتهادات في تأويل فروع العقائد والأحكام الظنية غير القاطعة، لا تدخل في مفهوم الشريعة، وإنما هي المذاهب

ارتأت مجلة الحوار ضمن الملف الذي أعدته عن تطبيق الشريعة، توجيه عدد من الأسئلة إلى الدكتور محسن عبدالحميد، المفكر الإسلامي المعروف، والذي أجاب عليها - مشكوراً - وكالتالي:

*** هل يختلف تعريف الشريعة، عند علماء المسلمين، بين عالم إلى آخر، ومن عصر إلى آخر؟**

جهد. محسن عبدالحميد: الشريعة في القرآن الكريم تعني الإسلام الموحد الذي جاء به الأنبياء والمرسلون وحياً قاطعاً من الله سبحانه وتعالى، لا سيما أولو العزم من الرسل، وهي أصول العقائد وأصول الأحكام وأصول السلوك، أو هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣). أما فروع الأحكام

إلا بهذا، فهو محورٌ وأساس لا يمكن التفريق فيه، وإلا خرج المجتمع عن وصف الإسلام.. وأما عوائق تطبيق الشريعة، فكثيرة ومتنوعة، من أهمها:

أ/ ابتعاد المجتمعات عن فهم تلك الأصول، وحكمة تطبيقها، لتحقيق مصالح الخلق، ومقاصد الحق.

ب/ غزو الفلسفات المادية والعلمانية والإباحية لمجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، وتغلغلها في حياتنا الفكرية والثقافية والإعلامية والاجتماعية وغيرها، والتي ترفض الأصول قبل الفروع، وتدعو إلى بناء الحياة على أسس جديدة لا علاقة لها بأصول دين الإسلام. وهذا كان نتاجاً طبيعياً لتخلف مجتمعاتنا، بسبب انفصال مدارسنا الفقهية والروحية وغيرها عن حركة الحياة المعاصرة، وتمكن الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، باسم الدين، من مجتمعاتنا، لأزمان طويلة.

ج/ استعمار الدول الطاغوتية لمجتمعاتنا، ونشرها لثقافتها وقوانينها، وإلغاء القوانين الإسلامية من محامنا، والدعاية الواسعة، في مؤسسات المجتمع الثقافية والتعليمية، ضد قيم الإسلام، ومحاولة تكوين جيل جديد، يقطع صلته بأصول دينه، وأحكام شريعته، وقيمه الفاضلة.

د/ ظهور ادعاءات، في أكثر من مجتمع إسلامي، بتطبيق الشريعة، من خلال جهل

الاجتهادية الفقهية، التي يُمكن أن يُعاد النظر فيها في كل عصر حسب الأعراف والعوائد، وتغيّر حركة الحياة في الاتجاهات كلها؟

والحق أن الرأي الذي يقول بأن الشريعة هي الأصول المشتركة بين جميع الأديان، وهي (دين الإسلام) عند الجميع، والتي لا تشمل التفريق والاختلاف في الفروع، لأنها ليست من الأصول، وإنما اجتهادات في فهم الفروع غير القاطعة، هو الراجح الصحيح، إن شاء الله تعالى.

وعلماء الأمة الذين يدعون إلى تطبيق الشريعة، يقصدون هذا المعنى، ولا أحد يعتقد أن الاجتهادات الفقهية ملزمة للمسلمين، لا في عصرنا، ولا في العصور القادمة، لأن لكل عصر اجتهاداته الجديدة، المستنبطة من الأصول القاطعة التي شرعها الله تعالى لأمة الإسلام إلى يوم الدين، في دائرة أصولها وقواعدها ومقاصدها ومآلات تنفيذ الأحكام فيها.

* ما هو مفهوم تطبيق الشريعة لديكم؟ وما هي عوائق تطبيقها اليوم في مجتمعات المسلمين؟

د. محسن عبدالحميد: مفهوم تطبيق الشريعة عندي، وعند جميع علماء الأمة المنتورين الراسخين في فهم الدين والدنيا، هو تطبيق الأصول في العقائد والأحكام والسلوك، لأنه لا يمكن توصيف أي مجتمع بأنه مجتمع إسلامي

د. محسن عبدالحميد: القوانين الوضعيّة، فيما لا يُخالِف قطعيات الشريعة وأصولها، يُمكن العملُ بها، لأنها إمّا قوانين نتجت عن تجارب البشرية الطويلة، وإمّا قوانين تعتمِدُ على المبادئ الطبيعيّة الفطريّة المتفق عليها بين البشر، وإمّا هي متأثرة بمبادئ الأديان وقيمها المتتابعة عبر التاريخ.

وأما في إطار معرفتي بالشريعة الإسلاميّة، التي جاءت لتحقيق مصالح البشرية في الحفاظ على الضروريات الخمس، وهي: الدين، والعقل، والمال، والنسل، والنفس، أو من أنها لا تصطدمُ مع كثير من القوانين البشرية، التي تحافظُ على هذه الضروريات المشتركة بين بني البشر. وما يُخالِف في القوانين الوضعيّة، أصول الأحكام الشرعية، فإن الحقّ - عند البحث الدقيق - يكونُ مع الشريعة. وحينئذٍ يُمكن أن تعالج هذه المخالفات، وهي ليست كثيرة. والمذاهبُ الفقهيّة الإسلاميّة فيها الكثير من المعالجات الحكيمة، والمبادئ القانونيّة الكليّة والجزيّة، التي اعترفت بها الجماع الغربيّة، ودعت إلى الاستفادة منها في صياغة القوانين الصادرة من المجتمع، فضلاً عن الاجتهادات الجديدة المستنبطة من النصوص الشرعية، التي يُمكن أن تتلاءم مع التغيّرات البشرية التي تحقّقُ مصالح البشر في العصر الحديث.

كبير مبادئ الشريعة، وحركة تغيّر الحياة، وعدم التفريق بين الأصول والاجتهادات، وفرض الاجتهادات القديمة على الناس بالقوّة وسفك الدماء، بحيث أعطت نماذج سيّئة، أساءت إلى الشريعة الإسلاميّة إساءة بالغة، وتُحرج اليوم إخراجاً بالغاً كل من يريد أن يقود المجتمع - ولو تدريجياً - إلى دنيا الشريعة الرحبة، وعدلها الحكيمة، وقيمها الفاضلة، وعقيدها التوحيدية الخالصة. وتطبيق الشريعة، من خلال فهم عميق لمبادئها، وخبرة واسعة بتطور الحياة، وتفريق متميّز بين أصولها وفروعها، يمكن جداً في ظلّ الدولة الحديثة، التي تؤكد المواطنة والعدالة، فضلاً عن تثبيت حقوق الإنسان، لا سيّما حقوق المرأة، الإسلاميّة والإنسانيّة. ولا بدّ أن يؤمن علماء الإسلام ودعاة تطبيق الشريعة، أن الغرض السطحيّ الجاهل غير ممكن، وإنّما يحتاج الأمر إلى الوعي والصبر والتدرّج والإقناع والتسامح، فمقاصد الشريعة ومبادئها الكليّة وقيمها الإنسانيّة، قريبة جداً في تحقيق دولة إسلاميّة مدنيّة معاصرة، تكون أمّودجاً للبشريّة، لإنقاذها من الانحرافات العقديّة والسلوكيّة والسياسات العدوانيّة على الشعوب الفقيرة والمستضعفين في الأرض.

* كيف يمكن تطبيق الشريعة في ظلّ

الدولة الحديثة؟

* لكن هل يمكن الاحتكام إلى قوانين وضعية في ظل دولة مسلمة؟

د. محسن عبد الحميد: لا شك أن مصادر الشرائع يمكن أن تتعدّد في ظلّ دولة مُسلمة، على ألاّ تصطدم مع المصدر الأوّل الأساس، الذي هو أصول العقائد، وأصول الأحكام، وأصول السلوك والأخلاق. ولأنّ النصوص القاطعة محدودة، وحوادث حركة الحياة غير محدودة، فلا بدّ من إيجاد الحلول المناسبة لها في كلّ عصر. والفقهاء الدينيّين الواسع، ومذاهبه، سيشكل مصدرًا ثانيًا لتشريع هائل يضبط حركة الدنيا، دون الخروج على المصدر الأساس.

وأما المصدر الثالث وهو التشريع العقليّ الطبيعيّ الفطريّ، الناتج عن حركة البشرية عبر تاريخها، والتي ترفد المجتمع الإسلاميّ البشريّ بكلّ جديد، وهذا المصدر مهمّ جدًا لرفد الاجتهاد في الفقه الإسلاميّ، لا سيّما في عصرنا، لأنّ اختصاصات المعارف والعلوم توسّعت وتعمّقت جدًا، فلا يمكن الاستغناء عنها، ومجرّد الاستغناء عنها سيخرج المجتمع الإسلاميّ عن حركة التاريخ، ويتخلّف في كلّ مضامير الحياة. وهذه الحركة في إطار الأصول العامّة القاطعة، هي التي تُسمّى بالسياسة الشرعية، التي يعرفها الفقيه الحنبليّ الكبير (ابن عقيل) بأنّها "ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد،

وإن لم يضعه الرسول، ولا نزل به الوحي" (الطرق الحكميّة، لابن القيم: ١٣-١٨).

وعلى الرّغم من أن المرجع الأساس، هو أحكام الشريعة الثابتة، لكنّها هي نفسها قد تكون متغيّرة عند التطبيع، بسبب تغيّر الظروف، أو اختلاف الأحوال، والدليل اجتهادات الخلفاء الرّاشدين، لا سيّما أمير المؤمنين (عمر بن الخطّاب) (رض) عندما أوقف مؤقتاً تطبيق النصوص القاطعة، نظراً للظروف الطارئة. وأمّا مفهوم المواطنة داخل هذه الدولة المتعدّدة الشرائع، فمفهوم عادل، فللمواطنين حقوقهم الإنسانيّة والدينيّة كاملة، كما أقرّها الرسول الأعظم (عليه الصّلاة والسّلام) في وثيقة المدينة، وهم يشتركون مع الأغلبية المسلمة في بناء الدولة والأمة حسب كفاءاتهم، لا يُظلمون ولا يُعتدى عليهم، وأحكامهم مفصّلة في دراسات عميقة عند الفقهاء قديماً وحديثاً (أحكام الذميين - د. عبد الكريم زيدان)، ومختصرها قاعدة: "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا".

* هل يمكن أن تتعدد مصادر التشريع في ظل دولة مسلمة؟ وإذا تعددت، فأيّ الشرائع تكون مرجعاً وما مفهوم المواطنة داخل هذه الدولة المتعددة الشرائع؟

د. محسن عبد الحميد: هنالك مساحة مهمّة من أحكام الشريعة، تنفيذها من مسؤوليات الدولة الأساسيّة، كتطبيق القصاص والحدود،

تغيّرات العصر، وإدخال اجتهادات جديدة، صادرة من مجامع الفقه الإسلامي المعاصر. وهذه العملية التقنيّة ليست عملية دينيّة لاهوتيّة، وإنّما هي عملية تقنيّة دنيويّة، لضبط حركة الحياة وتوجيهها.

وهذه العملية قانونيّة بحجة، لا تعطي أيّ قداسة لرئيس الدولة. لأن رئيس الدولة - في الشريعة - مُنتخب من قبل الشعب، ويحكم باسمه، لا باسم الله. وحياة الخلفاء الراشدين شاهدة على ذلك في الوثائق التي صدرت منهم.

وما وقع في التاريخ من نظام الوراثة، واغتصاب الحكم، والتحدّث باسم الله، في نظريّة (ظلّ الله في الأرض)، كان انحرافاً واضحاً عن حقائق الشريعة، لا يجوز أن يتكرّر في زماننا، الذي وَعَت فيه الشعوب، وتريد أن تسترجع حقوقها كاملة غير منقوصة. والشعوب الإسلاميّة عليها ألاّ ترضى بحكم الطواغيت المنحرفين، سواء في حُكم الأحزاب الشموليّة الطاغوتيّة، أو حُكم الانقلابات العسكريّة المغتصبة، أو حُكم الوراثة الأُسريّة المتخلفة، حُكم الطائفين المتعصّبين، أو المذهبيين الجاهليين، الذين ينقلون الصراعات الدمويّة السّابقة إلى مجتمعاتنا المعاصرة. فهؤلاء جميعاً لا يُمثّلون الإسلام، وشريعته، في شيء □

ومحافظة على حُرّيّة المجتمع والأفراد، وضبط حركة الأخلاق والسلوك، والإشراف على خُطط التنمية والتقدّم، بل وتحقيق العدل والأمن لجميع رعاياها، وأمور أخرى كثيرة. والمسلمون جميعاً مسؤولون أمام الله في عدم إيجاد دولة عادلة واعية، تحقّق أهداف الشريعة في القضاء على الاستبداد السياسيّ، والظلم الاجتماعيّ، وتتبع طرق الشورى المزمّة، للحفاظ على حقوق الناس، وقوّة المجتمع. وممارسات الدول الإسلاميّة، والانحرافات - أحياناً - عن أهداف الإسلام، عبر التاريخ، فهذه نعرّف بوقوعها، وليست ملزمة لنا، والمفروض على الأمة، في زماننا، ألاّ تسمح بتكرار نواحي الاستبداد والظلم والانحراف، وهذا يعتمد على وعيها الشامل في الوقوف أمام عدم تكرار الممارسات السّابقة، وإسقاط كلّ حاكم، أو نظام، لا يلتزم بتحقيق الشورى، والعدالة، وحقوق الأمة، في كلّ نواحي الحياة.

* ما مدى احتياج الشريعة إلى الدولة لتطبيقها؟.. وهل كانت الدولة حارسة للشريعة في تاريخ المسلمين؟

د. محسن عبدالحميد: تقنين الشريعة ضرورة، بدأ التفكير فيها منذ أواخر الدولة العثمانيّة، ولكن لا بُدّ ألاّ يُبنى هذا التقنين على مذهب واحد، وإنّما على جميع المذاهب الفقهيّة الصحيحة الأصول، مع مراعاة

الشريعة الإسلامية .. شريعة إلهية أم شريعة بشرية؟

دعوة للتطبيق أم دعوة للمجهول؟!



عزيز غفور

التي ربما ينتج التحقيق فيها مرة أخرى عدم ثبوتها.

وهناك من يدخل في تعريف الشريعة كل ما ثبت بالمصادر الأخرى، من: إجماع، وقياس، واستحسان، والمصالح المرسله... إلخ، وهي المصادر المختلف فيها، فتكون الشريعة - حسب هذا التعريف - محل نزاع وعدم اتفاق بين المسلمين.

ولنأت إلى القرآن الكريم، لنعرف استعمالاتها فيه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال بعد ذكر أهل الكتاب: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُم شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

الشريعة عند علماء اللغة هي مورد الماء، أو منحدر الماء، أو الموضع الذي ينحدر إلى الماء. قال الراغب: الشرع: نهج الطريق الواضح، والشرع مصدر، ثم جعل اسما للطريق النهج، ف قيل له: شرع وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية.

وفي الاصطلاح: فهي ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة، في شعبها المختلفة، لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك من يدخل في التعريف (كل ما ثبت في كتاب الله، وفي سنة الله ورسوله)، بدلا من (ما شرعه الله)، والاختلاف واضح، إذ إن ما شرعه الله يكون في القرآن المحفوظ، وما ثبت في سنة رسول الله (ﷺ) هو من الطنبيات،

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٥١﴾

نستنبط من هذه الآيات ما يلي:

١. مصدر الشريعة هو الله وحده. والرسول عليه اتباع هذه الشريعة، كسائر الناس.

٢. الشريعة الإلهية اختلفت، متأثرة بالزمان والمكان، بين الأمم السابقة وبين الأمة الإسلامية.

٣. هناك نقاط اختلاف بين الشريعة الإسلامية، والشرائع السابقة، ونقاط اتفاق أيضا.

٤. الأمة الإسلامية مكلفة بإقامة الشريعة، وليس لها إجبار أصحاب الديانات السماوية الأخرى بها، فلها شريعتها ومنهجها الخاص، وهي مأمورة بإقامتها.

٥. إن ما يدخل ضمن إطار الدين يسمى شريعة، وكل ما يشرع هو دين.

هذه بعض النقاط الهامة التي تستنبط من الآيات الكريمة، وهي مهمة للغاية لمن أراد الكلام عن الشريعة الإسلامية. وما أريد أن أنوه إليه، هو أن المسلمين اليوم ليس لهم مفهوم واضح متفق عليه عن الشريعة، فكل من جعل شيئاً من مصادر الشريعة، جعل ما يستنبط من الأحكام، في ظل هذا المصدر، من الشريعة التي لا يجوز الحياد عنها. فمن عدّ سنة الآحاد، أو الإجماع، أو القياس، أو

المصالح المرسلة، أو الاستحسان، من المصادر الشرعية، جعل كل الأحكام التفصيلية، المأخوذة من هذه الأدلة الإجمالية، شريعة الله. وهذا خطأ فاحش، فكيف يكون داخل الدين الواحد، مجموعة شرائع، مع أن الله جعلها شريعة واحدة لهذه الأمة، وجعل مصدرها واحداً، وهو كتابه الكريم؟.

وفي هذا التعريف المتداول شيء كثير من الخلط بين الفقه والشريعة، فبينما نجد الشريعة أحكاماً إلهية شاملة للعبادات والمعاملات والأخلاق والعقائد، نجد الفقه أحكاماً عملية مستنبطة من الأدلة التفصيلية.. فبينهما عموم وخصوص، فما اتفق من الفقه مع الشريعة، فهو شريعة وفقهه، وما اختلف منه مع الشريعة، فهو فقه الفقهاء واجتهاداتهم، وليس بشريعة.. فأحكام الشريعة أحكام ثابتة، منصوص عليها من جانب الله تبارك وتعالى، أما أحكام الفقه ففيها الثابت، وفيها المختلف فيه، وفيها الاجتهادي البشري..

والذي جعل الفقهاء والأصوليين يسمون فقهم بالشريعة، هو أنهم قالوا بأن المصادر التي استقوا منها الفقه هي مصادر اعتبرها القرآن، ودعى لاعتبارها. فقالوا باعتبار السنة مصدراً للشريعة، لأن الله أمر بإطاعة الرسول، واعتبار الإجماع سببه آية، واعتبار القياس أيضاً، وهكذا جميع المصادر الأخرى.. فقالوا إن ما اعتبره الله تعالى مصدراً يجب

فلنذهب أبعد من ذلك، إن شريعة كهذه: إما أنها ليست بشرية، لأنها لا تطبق أبداً، وإما أن طلب تطبيقها من الله تعالى، شيء تعجيزي، لا مجال لتطبيقه في الواقع.. فهل بقي هناك قول آخر ثالث؟!.. أما بالنسبة إلى القول الثاني، فهو ممنوع، لأن الله تعالى أمرنا بالفعل بإقامة الشريعة، وكلفنا بها، وليس هناك تكليف بالمحال من عند الله.. فبقي أن نقول إن هذه ليست هي الشريعة التي طالب الله المؤمنين والزمهم بتطبيقها..

إن الشريعة الإلهية كاسمها.. إنها إلهية.. لا دخل للمخلوق فيها، وكل ما خرج عن هذه الصفة، فليس بشرية، بل هو اجتهاد بشري، يخطئ ويصيب. إن الذي جعل شريعة الله لا يمكن تطبيقها، هو أنها ليست شريعة خالصة من عند الله، بل خليط إلهي بشري، ومن المأساة أن نسبة بشريتها أقوى فيها.. فكل مصدر من المصادر، سوى القرآن الكريم، يجعل من الشريعة، شريعة بشرية، قابلة للخطأ والصواب، فما يراه شخص حديثاً صحيحاً، يراه الآخر مكذوباً، أو ضعيفاً، وما يراه شخص إجماعاً، يكذبه الآخر، وما يراه شخص قياساً قوياً، يراه الآخر ضعيفاً.. وهكذا، يتدخل البشر باسم الشرع، فيشرعون ما ليس لهم به سلطان..

إذاً، العائق الأول، والأقوى، أمام تطبيق الشريعة، هو مصادرها الضعيفة، من حيث

اتباعه واستقاء الأحكام بحسبه.. ناسين، أو متناسين، أن فهمهم لهذه الآيات، التي هي أدلتهم لاعتبار هذه المصادر، هو فهم ظني، لا تقوم به الحجة على سائر المسلمين..!! فجعلوا بذلك الشريعة المتفق عليها محلاً للخلاف، وذلك بإدخال ما ليس شريعة إلى صميم الشريعة.

إذا اختصرنا الطريق، وجمعنا ما قاله العلماء عن الشريعة، وتعريفها، إلى بعض، فتحن أمام شريعة متعددة المصادر، من: كتاب، وسنة، وإجماع، وقياس، ومصالح مرسلة، واستحسان، ومذهب الصحابي، وشرع من قبلنا.. إلخ، وصار لنا أكوام من الآراء الفقهية المختلفة، والمتضاربة، فيه الغث والسمين.. وعليه، لو قلنا للمسلمين الذين ينادون بتطبيق الشريعة، هذه هي الشريعة فتعالوا نجعلها قانوناً للبلاد، ونطبقها.. ترى كم من السنوات نحتاج حتى يتفق المسلمون على مسألة فقهية واحدة، كي يجعلوها قانوناً؟؟ المسلمون لم تكفهم أربعة عشر قرناً حتى يحسموا الخلافات الفقهية بينهم، فيا ترى هل يحتاجون إلى أربعة عشر قرناً آخر، حتى يتفقوا، ويحسموا الخلافات..؟؟ دعنا نكون واقعيين، إن شريعة هذا هو حالها، لا يمكن تطبيقها أبداً، لسبب واحد فقط، وهو أن تسعين بالمئة من بنودها بنود ظنية خلافية، فلماذا نلوم الآخرين على عدم تطبيقها؟؟

القوة والحجوة. فرمما صلحت هذه المصادر كـ(فقه)، يعمل به المسلمون، ويستقون منه كيفية العبادات والمعاملات، دون أن يلزم أحد الآخر برأيه، ولكنها لا تصلح أن تكون مصدراً للشريعة الإلهية الثابتة، التي لا يجوز الحياذ عنها.

أما إذا كانت الشريعة إلهية، بمعنى أنها مستقاة من القرآن الكريم، ومن ثوابته، التي لا خلاف فيها، أو فيها خلاف أجازها الله تعالى، وجعل أمره إلى الناس، ليختاروا ما يصلح لهم. إذا كانت هذه هي الشريعة، فإننا على يقين أن الأمم ترحب بها ترحيباً واسعاً، وأن إمكانية تطبيقها سهل وممكن للغاية، لأن المقصود بالشريعة في القرآن غير مخصص بالمعاملات، بل بكل أوامر ونواهي القرآن، وتشمل: العقيدة، والعبادة، والمعاملات، ويكون نصيب الدولة منها قليلاً جداً. أما بقية الشريعة، فتطبيقها فردي، أو أسري، أو اجتماعي، والدولة وقوانينها تأخذ بما شرع الله لها، مما يشمل شؤون الدولة والمعاملات، ولا حرج في الأخذ بها في الدولة الحديثة، ولا يشكل العصر عائقاً لتطبيقها..

على حق من حقوق الله تعالى..

إذاً، فمصادر التشريع في الدولة الإسلامية تتكون من قسمين: الأول هو القرآن، وفيه شرع الله الذي لا يمكن تعطيله، إلا بما يجيزه الكتاب نفسه، والمسلمون مسؤولون عن إقامته أمام الله تعالى، وأمام الناس. والقسم الثاني، هو غيره من المصادر، سواء ما سمي منها المصادر الشرعية، أو المصادر الوضعية، فكل ما في هذه الأقسام اجتهادي، ليس هناك مسؤولية عنه أمام الله تعالى، ولا أمام الناس، إلا إذا أخذت به الدولة، فحينئذ تقوم الدولة برعايته، والعمل به، وإلزام الناس بتطبيقه، وهذا حسب مصالح الناس.

أما إذا كانت الشريعة إلهية، بمعنى أنها مستقاة من القرآن الكريم، ومن ثوابته، التي لا خلاف فيها، أو فيها خلاف أجازها الله تعالى، وجعل أمره إلى الناس، ليختاروا ما يصلح لهم. إذا كانت هذه هي الشريعة، فإننا على يقين أن الأمم ترحب بها ترحيباً واسعاً، وأن إمكانية تطبيقها سهل وممكن للغاية، لأن المقصود بالشريعة في القرآن غير مخصص بالمعاملات، بل بكل أوامر ونواهي القرآن، وتشمل: العقيدة، والعبادة، والمعاملات، ويكون نصيب الدولة منها قليلاً جداً. أما بقية الشريعة، فتطبيقها فردي، أو أسري، أو اجتماعي، والدولة وقوانينها تأخذ بما شرع الله لها، مما يشمل شؤون الدولة والمعاملات، ولا حرج في الأخذ بها في الدولة الحديثة، ولا يشكل العصر عائقاً لتطبيقها..

أما بقية المصادر، فإن الأخذ بما تنتج من أحكام، هو أخذ غير ملزم على المسلمين، ودولهم، لكونها اجتهادية، وكثيراً ما تتفق الأحكام الوضعية مع الأحكام المأخوذة من هذه المصادر، لأنها اجتهادية، والقوانين

أما بقية المصادر، فإن الأخذ بما تنتج من أحكام، هو أخذ غير ملزم على المسلمين، ودولهم، لكونها اجتهادية، وكثيراً ما تتفق الأحكام الوضعية مع الأحكام المأخوذة من هذه المصادر، لأنها اجتهادية، والقوانين

للدين في حقوق الناس، فالدين لا يثبت لأحد حقوقاً وامتيازات على غيره من الأديان الأخرى.. بل بالعكس، فإن الدولة الإسلامية، المطبقة للشريعة الثابتة الإلهية - بالمفهوم الذي ذكرته- يكون الضعفاء فيها أقياء، لرعاية الأقوياء لهم، وهذا الهامش من الحرية الدينية لا نجد في القوانين الوضعية الحديثة إلى اليوم.

ولو أخذت الشعوب المسلمة بهذا القانون، لكانوا الآن يباهون به بقية الشعوب الحرة، ولكن للأسف اختلط الأمر على المسلمين، وأدخلوا في شريعة الله اجتهاداتهم الشخصية، الحكومة بالزمان والمكان والأشخاص، والأسوأ أنهم أرادوا تعديده هذه الآراء والاجتهادات من عصر أمي بدائي، إلى عصر إلكتروني، لا يستوي فيه يومان، ولهذا صار ما يسمونه (شريعة) هاجس الشعوب، التي تعزبها القشعريرة بسماع اسمها، فما بالك برؤية من يدعون تطبيقها..

إن الشريعة الإلهية فيها من الأحكام الفردية، والأحكام الأسرية، والأحكام المجتمعية، والأحكام الخاصة بالدولة. وهي عامة، تشمل العبادات والمعاملات والأخلاق والعقائد، ونصيب الدولة قليل، كما ذكرت، لأن الشريعة مشتملة على بعض الأحكام الثابتة، التي يكون تطبيقها مطلوباً من الفرد والحكومة جميعاً. فكما أن على المجتمع مقاومة

وكل من هو داخل هذه الدولة ملزم بهذا القانون، ومسؤول عند مخالفته، والمواطنة هي أساس الحقوق والواجبات، وليس شيء آخر، مع وجود هامش كبير للحرية الدينية، كي لا تدوب الأقليات الدينية الأخرى في بوتقة الأكثرية. فالقسم الملزم بإقامته، وهي الشريعة الإلهية، التي أخذت بها الدولة، تمنح الديانات الأخرى حرية الاحتكام إلى شرائعهم الثابتة، ولهم بنودهم القانونية الخاصة، التي تحفظهم وتحفظ خصائصهم الدينية. بل للأقليات حقوق أخرى ليست للأكثرية، لأنهم في ذمة الأكثرية، أي على الأكثرية أن تقوم برعايتهم، وحفظهم، سواء من جانب المجتمع، أو من جانب الدولة. وهذا بعكس ما يشاع من إذلالهم، والنظر إليهم على أنهم من الدرجة الثانية، وأنهم تفرض عليهم الجزية وهم صاغرون، وهذا بهتان عظيم، لأن الآية الكريمة لم تعمم ضرب الجزية على أهل الكتاب، بل على المحاربين الملحدين من أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِأَيُّومِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فأهل الكتاب منهم المؤمنون، ومنهم الملاحدة المحاربون، وهم المقصودون بضرب الجزية عليهم. والناس في الدولة الإسلامية سواسية أمام القانون، ولا دخل

شريعة الله، وعدله، يجب أن يكون مرئياً لجميع الناس في أنحاء العالم، وعلى دين الله أن يظهر على الدين كله، بجماله ورحمته وأحكامه ويسره.. والأحكام الشرعية الخاصة بالدولة، لا مجال لإظهارها، إلا بدولة

تكفل تطبيقها..

وأخيراً، أدعو إلى مراجعة مفهوم الشريعة، وإخراجه مما اختلط به من اجتهادات، كانت سبب الفارقة والاختلاف لقرون عدة. وإلى أخذ الشريعة الإلهية من منبعها الوحيد، وهو كتاب الله، وإدخال جميع ما سواه في مصادر التشريع، التي تنتقي الدولة منها ما تصلح به شؤونها. كما أدعو إلى تقنين الشريعة الإلهية، وبيان أطرها العامة، التي على الدولة الإسلامية الأخذ بها. وأدعو أيضاً إلى جمع هذه الثوابت القانونية القرآنية، والأطر العامة للتشريع والدولة والعلاقات في كتاب واحد، يجتمع عليه المسلمون بكافة أطيافهم، وعندها يكون لهم الحق في أن ينادوا بتطبيق الشريعة □

(الحرابة)، فعلى الدولة سن القوانين لخارجيتها، وكما للفرد إيتاء الزكاة، فعلى الدولة التقنين لها، وكما على الفرد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهناك من المفاسد ما لا يتغير إلا بسطان الدولة.

فالشريعة الإلهية - كما قمت بتعريفها - أحكامها ملزمة من قبل الله، ومن قبل الدولة، وعليه يجب تقنين نصوصها، وأحكامها، حتى يتأتى للدولة رعايتها.

وهناك شيء يجب أن أنوه عليه، وهو أن الشريعة الإلهية الموجودة في القرآن، المكنونة داخل نصوصه، يمكن أن يشملها الاختلاف، لأنها مكونة من نصوص مجردة، قد تتحمل تفسيرات عدة، والدولة مختارة بين الأخذ بأي من هذه المعاني والدلالات، وتقنينها، ومساائلة الناس أمامها..

وشيء آخر جدير بالذكر، وهو أن نصوص الشريعة الإلهية، وأحكامها التشريعية الخاصة بالدولة، ملزمة للناس، عندما تكون هناك دولة تريد لنفسها أن تكون دولة إسلامية مراعية للشريعة. أما غيرها من الدول الحديثة، المسماة بتسميات متعددة، ومتنوعة، فليس المسلمون ملزمون بتطبيق هذه النصوص، التي يكون تطبيقها من شأن الدولة، فأحكام الفرد يطبقها الفرد، وأحكام الدولة تطبقها الدولة. أما العمل المدني من أجل إيجاد هذه الدولة، فهو أمر ملزم، لأن

دراسات

- د. مصطفى عطية جمعة - تدبير الاختلاف بين عناصر الأمة المسلمة
- د. فرست مرعي - اكتشاف المخطوطة القرآنية رد على شبهات قديمة.. جديدة
- سالم بابه شيخ البرزنجي - الزكاة في القرآن
- د. أمين محمد سعيد - التنمية الاقتصادية من المفهوم المادي إلى المفهوم الإنساني
وصلاح الدين أحمد
- صالح شيخو الهسنياني - تأملات في آية الانسلاخ
- د. أباد كامل الزبياري - مراعاة فقه الأولويات في تطبيق الشريعة الإسلامية
- د. أكرم فتاح سليم - قصة الشيطان والأفلام الدينية في السينما الأمريكية
- أثير محسن الهاشمي - الموت في نهج البلاغة

تدبير الاختلاف بين عناصر الأمة المسلمة



د. مصطفى عطية جمعة

أديب وأكاديمي مصري مقيم في الكويت

Mostafa_ateia123@yahoo.com

فيهما دليل، وبالطبع في الأمور الفرعية من قضايا الحلال والحرام. ولو حكم القاضي حكماً برأي مستند إلى الخلاف، وليس الاختلاف، فيجوز فسخ حكمه. أما الخلاف، فهو فيما لا دليل عليه، وهو من آثار البدعة، ويكون في شيئين كلاهما مختلف في الماهية والشكل، ولا تلاق بينهما^(٤).

إذاً، لا يجوز الاختلاف في الثوابت، كالعقائد، والمعلوم من الدين بالضرورة، وإنما في الفروع، مثل القضايا الفقهية. ولا بد أن يكون مرتكزاً على أدلة واضحة، حسب شروط الدليل الشرعي.

أما الخلاف، فهو مبني على الرأي، دون استناد إلى دليل، أو نص شرعي، أو مصدر

يخ (الاختلاف) لغةً وشرعاً ومقاصد: المقصود بـ(الاختلاف)، لغةً، هو: ضد الاتفاق. يقال: اختلف الشيطان، أي: لم يتفقاً، ولم يتساوياً^(١). ولا تفتق - لغةً - مع دلالة لفظي الخلاف والمخالفة، فكلها بمعنى واحد^(٢). فالدلالة الأولية للكلمة، تعني: اختلاف الأشياء أو الأمور أو القضايا، بألا يوجد أوجه تلاق بينها، وأيضاً: عدم التساوي في الكم والكيف والماهية.

وفي الاصطلاح الفقهي، الاختلاف يعني: أن يكون الطريق مختلفاً، والمقصود واحداً. والاختلاف في الأصول ضلال، وفي الآراء والحروب حرام^(٣). وقيل إن الاختلاف يكون بين قضيتين أو مسألتين

عَظِيمٌ ﴿٦﴾، ففيه نهى للمسلمين أن يكونوا كالأُمم الماضية، في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم^(٧)، وانشغالهم بكثرة الجادلة والاختلاف، مما أدى لتشتت قلوبهم، وإفساد عقولهم بالأهواء، بعدما نعمت الجماعة المؤمنة بالهداية والإرشاد (البيئات)، ولكنهم لعوامل عديدة، تفرقت صفوفهم.

وقد سبقت هذه الآية آية أخرى، تمثل إنذاراً لأولي العلم، محددة واجبات من يتطوع لنشر العلم، وإفادة الناس، فلا يغرقهم في خلافات تمزق قلوبهم، وتحيد بهم عن الحق. وهي قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٨)، أي تكون الفئة المنتصبة للقيام بأمر الله، ساعية في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٩). وهي واجبات لو نظرنا إليها، لوجدنا أنها خلاصة رسالة الإسلام: فالخير في الإسلام يشمل وجوه النفع كلها، للناس جميعاً. والأمر بالمعروف: دعوة لكل إنسان، أن يأتي خيراً للدين، وهداه، ويسير في طريقه، خلقاً وسلوكاً، وعبادات وطاعات. أما النهي عن المنكر: فترك كل الشرور والآثام.

وبالتالي، فإن الخلاف في الإسلام يتوجه بالأساس إلى التنافس فيما يفيد الجماعة

من مصادر التشريع. وفي الحياة يكون مستندا إلى أحكام العقل المتقلبة، وتأثيرات الهوى والرغبات والميول. وعندما يشتد، يكون أقرب إلى المهاترة، ويؤدي إلى فساد النفوس، وتباغض القلوب.

وفي رأي آخر، هناك من يرى أن كلاً من لفظي (الخلاف، والاختلاف) لا يختلفان شرعاً، مثلما هما غير مختلفين لغة. ويحدد الأمر أكثر، بأن كلا اللفظين: مقصور على الاختلاف في المسائل الشرعية، فالعلاقة بين المعنيين هي علاقة عموم وخصوص مطلق، ذلك أن علماء الشريعة يطلقون الخلاف على المسائل الشرعية التي لم يجمع عليها، فالخلاف ضد الإجماع^(١٠).

وعلى العموم، فالمقصد السامي، هو ترفع العلماء والدعاة والعقلاء عن التعارك اللفظي، المستند إلى تعصب النفوس، وهواها، وبنقص في العلم أحياناً. أو قد يدرك بعضهم العلم، ولكن حب الدنيا، والرغبة في التسلط والشهرة والتصدر، وإرضاء الحاكم، تكون أسباباً في مخالفة الحق، والنأي عن العلم. فالقضية قضية نفس وسلوك في الأساس، وما قد يترتب عليها من بلبه للعقول، وتأليب للعامّة، والانتصار لغير الحقيقة.

وهذا ما نهى القرآن عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، يعتمد مخالفة رسول الله في شيء من سنته، دقيق أو جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ("١")، "فقد تنفوت الأنظار في تقدير المروييات، والحكم بقبولها، أو رفضها، ولا يعني هذا ترك السنة، فإن ما قرر العلماء ثبوته موضع الاحترام" ("١").

وقد كانت عاداته الكريمة (صلى الله عليه وسلم)، أن يقر كل صحابي بما يسره الله له من عباداته، وفتاواه، وأقضيته، فحفظها وعقلها، وعرف لكل شيء وجهاً، من قبل حفوف القرائن به، فحمل بعضها على الإباحة، وبعضها على الاستحباب، وبعضها على النسخ، لأمارات وقرائن كانت كافية عنده، ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والتلج، من غير التفات إلى طرق الاستدلال. كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم، وتتلج صدورهم بالتصريح والتلويح والإيماء، من حيث لا يشعرون ("٢"). فهذا الإقرار من لدن الرسول (ﷺ)، لأنه كان يعلم أن هؤلاء يتلقون الفهم والتربية مباشرة من قبله، قولاً وسلوكاً وتوجيهاً.

وبالطبع، معلوم أن هناك تفاوت بين الصحابة، والعلماء من بعدهم، بكثرة العلم، أو جودته. مثلما أن هناك تفاوت بين

المؤمنة، وما هو خير للبشر أجمعين، دون النظر لشهوات سلطة أو شهرة أو مال أو جاه أو سلطان أو تعصب فئوي أو عنصري أو مذهبي.

الاختلاف المقبول والمذموم:

وبالطبع هناك اختلاف مقبول، عائد إلى اختلاف العقول والطباع والنفوس. ولكنه لا يجيد عن الحق، ملتزم بتعاليم الدين القويم. وهو الحالة التي لا جدال في أهميتها، لأنها مدار الأمر في الحوار والنقاش. فقد تجردت النفوس من أهوائها، وجعلت نصب أعينها الحقيقة، ووضعت مصلحة الناس وخيرهم، وكليات الدين الخمس في المقدمة، ولم تختلف على الأصول والثوابت، وإنما جاء خلافها في الفروع والثانويات، في ضوء تغيرات الأزمنة والأمكنة والأحوال. فيكون الخلاف فائدة، وتيسيراً، وسعياً إلى تطبيق الشريعة: روحاً، ومبادئ، وتعاليم، وأخلاقاً.

وهذا الأمر منصرف إلى العلماء الثقات، موضع الاحترام والتقدير من الأمة، وليس من هم أصحاب الأغراض، وطلاب الشهرة والمنفعة، كما قال ابن تيمية: "إذ كل أمة - قبل مبعث نبينا محمد (ﷺ) - فعلماءؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، واخيرون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا..

والإباحة^(١٥). وتوسّع المؤلف في كتابه، في ذكر أسباب الخلاف، وبيان أوجه الدلالات المقبولة، والتوفيق بين الآراء.

أما الاختلاف المذموم، فيكون في حالات ثلاث، الأولى: في مسائل العقيدة المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة، فالعقيدة ثابتة بنصوص قطعية في الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والسلف الصالح. والحالة الثانية: الاختلاف في الأدلة القطعية، أي المسائل قطعية الثبوت، وقطعية الدلالة، مثل: وجوب الصلاة والصيام والزكاة، وقطع يد السارق، ورجم الزاني، ووجوب الحجاب، وتحريم الخمر، ونحو ذلك. فالاختلاف في هذه المسائل غير سائغ، لأنه لو قبل الخلاف فيها، لما بقي شيء من مسائل الدين.

أما الحالة الثالثة: فهي الاختلاف الناشئ عن تعصب، أو هوى، لا عن حجة وبرهان^(١٦). فالله تعالى يذم الذين يجادلون في آياته بغير حجة ولا برهان، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١٧)، فتعني: إِنَّ الَّذِينَ يُخَاصِمُونَكَ يَا مُحَمَّدٌ، فِيمَا أَتَيْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ مِنَ الْآيَاتِ، بِغَيْرِ حُجَّةٍ جَاءَتْهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ، يَتَكَبَّرُونَ مِنْ أَجْلِهِ عَنِ اتِّبَاعِكَ، وَقَبُولِ الْحَقِّ الَّذِي أَتَيْتَهُمْ بِهِ، حَسَدًا

الصحابة أنفسهم بحديث رسول الله ﷺ، بحكم حضور بعضهم لجالس النبي مرات، وحضور آخرين مرات أخرى، فيكون عند هؤلاء من العلم، ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء، ما ليس عند هؤلاء^(١٨).

فالاختلاف، حسب مصادر العلم من الحديث، كان موجوداً منذ أيام النبي، ولم يكن ذكر قول منسوب للنبي، ثم التراجع عنه، لوجود قول آخر أحدث منه، أو ينسخه، أو يصححه، بالأمر الخطأ، ولكنه كان ضمن دائرة العلم والتثبت والسعي لليقين.

لذا كان التابعون والفقهاء، يأخذون بما روي مباشرة عن الصحابة، ويعملون بما رووا، وفعلوا، سواء كان استنباطاً منهم من النصوص، أو اجتهاداً منهم بأرائهم، فهم أحسن صنيعة في كل ذلك ممن يجيء بعدهم، وأكثر إصابة، وأقدم زماناً، وأوعى علماً، فتعين العمل بها^(١٩).

وقد أحصى العلماء، منذ القدم، أوجه الخلاف في تأويل النصوص، وحددوا أبعادها، وآثارها، خاصة في تفسير النصوص، والتوقف عند إشاراتها اللغوية. ومن أبرز هذه الجهود ما قام به (البطليوسي)، حيث أشار إلى أسباب الخلاف المعروفة، ومنها: ما يعود لجهة الألفاظ، والحقيقة والجاز، وجهة التركيب، والعموم والخصوص، والرواية، والنسخ

بجب العلو والرئاسة، وفق ما توفر لها من مال أو مكانة أو تطلعات، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه، فمعبوده ما يريد بهواه! كما قال تعالى: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلاً} (٢٠). فمن اتفق معه فيما رأى وحكم، وداوم على الاستماع إليه، واتباعه، صار صديقاً له، مقرباً منه، وإن كان عاصياً لله تعالى، أو حتى مشركاً كافراً. ومن لم يوافقه فيما يهواه، كان عدواً، وإن كان من أولياء الله المتقين. والتفاوت في هذا بين الناس كبير، فكثير من المسلمين يطلبون طاعتهم من غيرهم، وإن كان في هذا السلوك معصية لله تعالى، فمن أطاعهم في ذلك، كان أحب إليهم، وأعز عندهم، ممن أطاع الله ورسوله (ﷺ). ومن هنا تتكون الشخصيات المستبدة، التي تقترّب من فرعون في غيه.. كيف لا؟ وهم يرون كل ما يقولونه ممدوحاً، وكل ما يفعلونه محط الإعجاب (٢١).

قال (شداد بن أوس): "يا بقايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم: الرياء، والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة، فهي خفية تخفى على الناس، وقد تخفى على صاحبها" (٢٢).

فحب الرئاسة، أحد أسباب الهوى، فكم من رأي قيل، يهدف صاحبه إلى البروز،

مِنْهُمْ عَلَى الْفَضْلِ الَّذِي آتَاكَ اللَّهُ، وَالْكَرَامَةَ الَّتِي أُكْرِمَكَ بِهَا مِنَ النَّبُوءَةِ. وقوله: (سلطان)، أي: حجة وبرهان (١٨). فالآية تبرز أهمية أن يكون الجدال أساسه برهان، وليس التمسك بهوى النفس، ورغبتها في الانتصار لرأيها.

ولهذا، حذر السلف عن مجالسة من كانت الأهواء سماتهم، وكما قال (أبو قلابة): "لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإنني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما تعرفون" (١٩). فمجلس صاحب الهوى لا يسلم من الشر، فيما أن يتابع المجلس صاحب الهوى على هواه وباطله، أو يدخل عليه شبهة في دينه، الذي يعرف أنه حق، وفي كل الأحوال فهو جليس سوء، أو نافخ كبير، لأنه ينفخ مما اعتمل في قلبه من مزاج ورغبات، دون النظر إلى ضوابط الشرع. ولعل المشكلة الكبرى كامنة في سكوت صاحب العلم، إما إشاراً للسلامة، وهذا ضعف في الحكمة والبصيرة، وإما نفاقاً لصاحب الهوى، لأن الأخير ذو سلطة أو غنى، وهذا ظلم عظيم. والنتيجة: انتشار الخطأ بين الحضور، وضياع الحق.

والعاقل إذا تعرف على حالات النفوس وتبدلاتها، وتأمل في أخبار الناس وتقلباتهم، وجد أن كل فرد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو، وفق حاله ومراده، فالنفوس ممتلئة

يثيرون من القضايا ما يلبلون أذهان مستمعهم، خاصة من الأكثر جهلاً، وتصيح القضايا العلمية الخاصة، موضعاً للنزاع في أماكن العامة، وتنشغل القلوب بالفرعيات، ويهملون الكليات والأساسيات، وما يفيد مجتمعهم عملياً.

على الجانب الآخر، فإنه لا يجوز حمل الناس على رأي واحد، ولا مذهب واحد. والحادثة الشهيرة في تاريخ الإسلام، حينما رفض الإمام مالك (رضي الله عنه) ما اقترحه الخليفة العباسي (هارون الرشيد)، عندما سمع الموطأ خلال حجته، من الإمام (مالك)، فرغب أن يعلقه في الكعبة، ويحمل الناس على العمل بما جاء به. فأجابته الإمام (مالك) -رحمه الله-: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله (ﷺ)، اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلاد، وكل مصيب. فعدل (الرشيد) عن ذلك (٢٥).

وعلى المستوى العملي، في تطبيق الأحكام الفقهية، فإن هناك فرقاً بين القاضي المجتهد والمقلد. فالقاضي المجتهد، يجب عليه أن يحكم، في ما يرفع إليه من القضايا وإشكالات وتساؤلات، بما وصل إليه باجتهاده، ولا يجوز للحاكم العام إلزامه، حين التولية أو بعدها، أن يحكم بمذهب معين، أو قول معين. فإن ألزمه، بطل الشرط، وصحت التولية. وقيل: يبطل الشرط والتولية جميعاً. وإن كان الإلزام

والاستئثار بالأعين، وتصدر المشاهد. وكم من تزلف لأصحاب الرئاسة، أملا في الاستفادة. وبالتالي تصبح الرئاسة فتنة، لصاحبها، ومن حولها.

ومن أسباب الهوى أيضاً: التعصب الطائفي والإثني. فقد جاء في السيرة، في أحد مغازي النبي (ﷺ)، أنه اقتتل غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري للمهاجرين، ونادى الأنصاري يا للأنصار، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: ما هذا، دعوى أهل الجاهلية! دعوها، فإنها منتنة (٢٣). فبين ظهراني الرسول (ﷺ)، ووسط أجواء التزيية الإيمانية الصحيحة، تغلب التعصب، وتنادوا بدعوى الجاهلية، التي لم يعلق عليها الرسول إلا بوصفها (منتنة). فالتعصب لطائفة سبب آخر من أسباب الحكم بالهوى، والتعصب له. فمجاراة القوم أسهل وأنفع من الاختلاف معهم.

بجانب أيضاً: الخلاف المولود على مصاطب الفراغ والثروة، الشاعل مجالس اللهو والبطالة، هو معصية الله وتوهين للأمة. ولم يكن هذا الخلاف موجوداً عندما شغلت الأمة برسالتها، وعبأت قواها. فلما استراحت، أخذت تتحدث في دينها وتتقعر (٢٤). وهو خلاف يصطععه من أموا بعض العلم، وأرادوا المجادلة، لا النفع به،

والتعامل معه. وبدلاً من أن يكون الاختلاف سبباً لتفريق القلوب، وتشتت العقول، وبلبلتها، يكون سبباً إلى سعة الصدر، وقبول الرأي الآخر، والمزيد من الحيوية الفكرية والعلمية والإبداعية في المجتمع. فتبني رأي واحد، واعتباره غاية العلم، والعمل، كارثة. وحمل الناس على مذهب واحد، والتفاني في الدفاع عنه، يؤدي لتجمد العقول والنفوس.

أما عناصر الأمة، فنقصد بها: المكونات الدينية والثقافية والاجتماعية، وغيرها، التي تشكل روافد للأمة: عقيدة، وفكراً، ورؤية، وواقعاً. فيكون تدبير الاختلاف سبباً في جعل هذه المكونات سبباً إلى التكامل لا التصارع، الوحدة لا الفرقة، التنوع لا الأحادية، العمل لا النظر، النقاش الثري لا الرأي الجبري، الالتقاء لا الافتراق □

الهوامش:

^١ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص ٢٥١.

^٢ القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، مادة خلف، ص ١٠٤٥.

^٣ الكليات، لأبي البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص ٦١.

بعد التولية، بطل الإلزام، وقضى بموجب اجتهاده.. أما القاضي المقلد، فقليل فيه بما ذكر من الخلاف في حكم المجتهد، ويلزمه العمل بما قيد به، ولو خالف اعتقاده.

أيضاً، هناك فرق بين المسائل العلمية الكلية، والقضايا الجزئية: فحكم القاضي، أو ولي الأمر، لا يرفع الخلاف في الأولى، فيبقى لغيره حق النظر والحكم فيها بما يراه عن اجتهاد. ويرفع الخلاف في الثانية، فليس لأحد أن ينقض حكم ولي الأمر، أو القاضي، فيها بعينها، إلا إذا خالف نص الكتاب، أو السنة الصحيحة، أو الإجماع^(٢).

في ضوء ما تقدم، يتحدد الهدف فيما يطرحه البحث حول (مفهوم تدبير الاختلاف بين عناصر الأمة)، فهناك ثوابت ومتغيرات. فالثوابت، أهمها: أن الاختلاف طبيعة في الفطرة البشرية، والمتغير: في اختلاف الأفهام، والشخصيات، والظروف، والأزمنة، والأمكنة. والثابت: أن النظر إلى الاختلاف من قبل العالم، والداعية، لا بد أن يكون مجرداً من الهوى والتعصب القبلي والفئوي والمذهبي، وأن يتبني وجه الله سبحانه. والمتغير: أن كل عالم له الحق في تبني أي رأي، ما دام مستنداً إلى أصول شرعية واضحة.

وعندما نقول: تدبير الاختلاف بين عناصر الأمة، فيعني أن المسألة ليست في الاختلاف ذاته، وإنما سبل تدبيره، وقبوله،

^{١٨} (جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، سلسلة تراث الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ج ٢١، ص ٤٠٤).

^{١٩} (مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، نشر بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، ج ٣، ص ٣٨٤).

^{٢٠} (سورة الفرقان، الآية (٤٣)).

^{٢١} (يذكر أن أحد الحكام المستبدين، كان في رحلة صيد، ومعه أتباعه، وكان مجيداً للصيد بالبندقية، فأصاب الكثير من الحيوانات ببراءة، والكل من حوله من الوزراء والعلماء بهتف إعجاباً، فلما أخطأ مرة، سكتوا واحتاروا فيما يقولون، ثم رفع أكثرهم ذكاءً صوته قائلاً: ما أروع حكمتكم مولاي التي تركتم بها هذا الحيوان يحيا! انظر مقال مذكرات أمير منبوذ، سليمة لبال، جريدة القبس الكويتية، الثلاثاء، ١٥/٤/٢٠١٤م).

^{٢٢} (مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج ١٦، ص ٣٤٦).

^{٢٣} (صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، كتاب البر والصلة والآداب: باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ص ١٠٤٢، رقم ٢٥٨٤).

^{٢٤} (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص ١٢٥، ١٢٦).

^{٢٥} (المدخل إلى الفقه الإسلامي، د. محمد يوسف موسى، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، دت، ص ١٠٨).

^{٢٦} (تدوين الراجح من أقوال الفقهاء في المعاملات وإلزام القضاة بالحكم به، إعداد: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، بحث بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المجلد الثالث، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص ١٨٦).

^٤ (القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين، د. محمود حامد عثمان، دار الزاحم للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ٢٧، ٢٨).

^٥ (فقه الخلاف وأثره في القضاء على الإرهاب، د. يوسف بن عبدالله الشيبلي، بحث مقدم لمؤتمر (موقف الإسلام من الإرهاب) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ، منشور على موقع الباحث الشخصي.

www.alshubily.com

^٦ (سورة آل عمران، الآية (١٠٥)).

^٧ (تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٩٢).

^٨ (سورة آل عمران، الآية (١٠٤)).

^٩ (تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٩٢).

^{١٠} (رفع الملام عن الأئمة الأعلام، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٣٩٦هـ، الطبعة الخامسة، ص ٤).

^{١١} (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، ط ٣، ١٤٠٢هـ، ص ١٣٩).

^{١٢} (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي (المتوفى: ١١٧٦هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ص ١١).

^{١٣} (رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص ٦).

^{١٤} (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ص ٢٤).

^{١٥} (الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم، أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن السيد البليوسي (المتوفى: ٥٢١هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الدايدة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٣م، ص ١١).

^{١٦} (فقه الخلاف وأثره، ص ٤).

^{١٧} (سورة غافر، الآية (٥٦)).

اكتشاف المخطوطة القرآنية

رد على شبهات قديمة.. جديدة

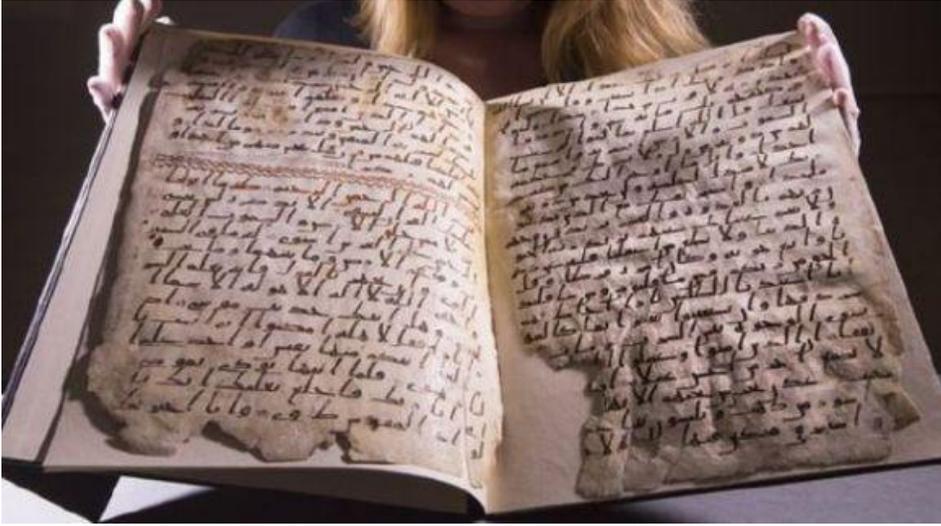


د. فرست مرعي

أن تحدد عمر الأشياء بنسبة ٩٥٪، ووفقاً للفحص الذي تم على المخطوط فإنه يعود إلى ما بين عامي ٥٦٨ م و ٦٤٥ م، فيما نزل الوحي على الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) في الفترة ما بين عامي ٦١٠ إلى ٦٣٢ م، وهو ما يعني أن الذي قام بكتابة هذه المخطوطات، قد عاش في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو أنه عرفه، وربما كان مقرباً منه، أو من خلفائه الراشدين، وتحديدًا الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٥ م)، الذي جمع القرآن الكريم، بحسب قول البروفيسور (ديفيد توماس) الأستاذ المختص بالمسيحية والإسلام، في (جامعة برمنغهام)، وبذلك فإن

كأعلن باحثون في جامعة برمنغهام البريطانية، عن العثورهم على صفحات من نسخة من مصحف، وبفحصها بالكربون المشع، تبين أنها الأقدم في العالم حيث تعود إلى قبل ١٣٧٠ عاماً. وحسبما ذكرت مصادر إعلامية بريطانية، فإن هذه الأوراق موجودة في مكتبة الجامعة منذ قرن من الزمان، ولم يهتم بها أحد، وتم حفظها ضمن مجموعة من المخطوطات والوثائق الخاصة بالشرق الأوسط، حتى لفتت نظر أحد طلبة الدكتوراه، وتم إخضاعها للفحص بالكربون المشع، في وحدة تقنية بجامعة أكسفورد، وتبين أن النص مكتوب على جلد الغنم، أو الماعز، بالخط الحجازي، والمعروف بأنه من أقدم الخطوط العربية. ويمكن لتقنية الكربون المشع

هذا المخطوط يكون من أقدم نصوص القرآن الكريم الموجودة في العالم. ومن جهته قال (محمد عيسى والي)، خبير المخطوطات في المكتبة البريطانية: هذا الاكتشاف مذهل، وسيدخل السعادة في مخطوطاً عربياً، و(٦٠٦) مخطوطات سريانية وكرشونية، مع مجاميع أخرى. والفونوس منكنّا (allophones mingana) هو (هرمز بولص منكنّا)، أو (منكنّا)، ولد في ٢٣ كانون الأول من عام



قلوب المسلمين. هما لفافتان مكتوبتان بخط حجازي جميل ومقروء، تعودان بكل تأكيد إلى زمن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المخطوطة، ضمن أكثر من ٣٠٠٠ مخطوطة ووثيقة، جمعها (الفونوس منكنّا) القس الكلداني الكوردي، ونقلها إلى مكتبة (سيلى أوك)، في (جامعة برمنكهام)، في بريطانيا، في زيارتين متتاليتين إلى العراق، في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥م على التوالي، من بينها (٢٣١٧) ١٨٧٨م، في قرية (شرانش العليا) (=نصارى)، الواقعة على بعد ٢٢ كم شمال مدينة (زاخو)، التابعة لمحافظة دهوك في كردستان العراق، وتوفي في ٥ كانون الأول من عام ١٩٣٧م، في مدينة (برمنكهام) البريطانية. كان والده قسيساً كلدانياً في قرية (شرانش)، ومنذ صغره أرسله والده، وعمره (١٢ سنة، ليدخل معهد (مار يوحنا الحبيب)، الذي كان قد تأسس في مدينة (الموصل) عام ١٨٥٨م، لكي يتخرج، وليصبح قسيساً.

الأديرة والكنائس القديمة، في بغداد والموصل وأربيل وزاخو وديار بكر التركية، ويستنسخ ما يستطيع منها. وخلال هذه الفترة ألف بضعة كتب ودراسات تاريخية، بعضها بمشاركة مستشرقين إنكليز وفرنسيين.

والقس المذكور مثير للجدل، فقد زور مخطوطة (اقرور- تاريخ أربيل- إربل) سنة ١٩٠٧م، حول الانتشار المبكر للمسيحية في كردستان، وحاول انتحال اسم مؤلفها: (مشيحا زخا)، وباعها إلى (مكتبة برلين) تحت رقم (٣١٢٦) بمبلغ ٣٥٠٠ مارك ألماني عام ١٩١٤م، واستطاع (منكنا) أن يخدع المستشرقين بذلك زماناً طويلاً، إلا أن السواد الأعظم منهم يميلون الآن إلى اعتبار هذا التاريخ وثيقة مزيفة، لا ترقى إلى أبعد من مطلع القرن العشرين. وبعد كشف تزوير المخطوطة، تبين بأن المخطوطة حديثة، كتبها القس (أوراها شكوانا الألقوشي ١٨٥١-١٩٣١م)، وأجرى عليها محاولة تزوير ياشباعها من دخان تنور، حسبما توصل إليه الخبير في المخطوطات، الألماني: (اسفالج) كما أن القس (شكوانا) اعترف لصديق له بأن (منكنا) علمه الطريقة التي يمكن أن تبدو المخطوطة قديمة. أضف إلى ذلك، أن الراهب الكرمليسي (توما بن حنا بلوطا) اعترف للأب الفرنسي الدومنيكي (فوسقي)، بأنه قد كتب عنوان الكتاب المنحول بخط يده.

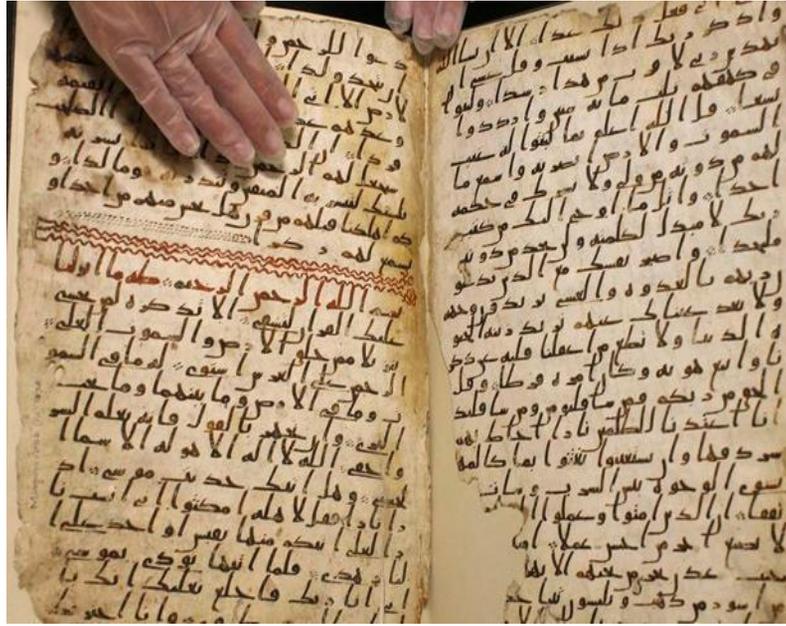
كان (هرمز) فني ذكياً مشابهاً في تحصيل العلم، يحب المطالعة، ويعشق تعلم اللغات، وقرائتها، فخلال دراسته الأولية أتقن اللغات التركية والسريانية والعربية، كما كان ملماً بالكوردية، وعندما التحق بمدرسة الآباء الدومنيكان سرعان ما تعلم الفرنسية والعبرية، وكان متقدماً في دراسته، وقد رسم قسيساً في عام ١٩٠٢م، واختار له اسماً جديداً وهو (الفونس)، وهو تقليد درج عليه رجال الدين من المسيحيين، ليفرقوا بين الفترتين المدنية (=العلمانية)، والدينية، التي تتميز بالتقشف والتبتل!

وبعد فترة أشهر من ممارسته الدينية في (شرانش)، اختير من بين الخريجين، لإتقانه كتابة اللغة السريانية، لأن محلّ أستاذه في المدرسة الدينية العالية: (الأب أوجينمنا المتوفى سنة ١٩٢٨م)، الذي أصبح مطراناً. ولم يكد يدرس لفترة وجيزة حتى عهد له أيضاً تصحيح الكتب المدرسية باللغات التركية والعربية والفرنسية، التي كانت تطبعها (مطبعة الآباء الدومنيكان) في (الموصل)، التي كانت قد تأسست سنة ١٨٥٨م.

أدرك (الفونس منكنا) أن السريان القدماء خلفوا لنا كتباً عديدة مهمة، في العهد الفارسي الساساني — بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين—، فراح يبحث عنها في

ومن جانب آخر، فقد انتقده الأب (بيترز البولنديستي) انتقاداً لا ذعماً، في مجلة "غيرها" كما أنهم بعدم صدقه في تاريخ كتابته

المخطوطة، ومحتواها. مما سبب خلافاً بينه وبين رؤوسائه، فأعفي من التدريس، وأعيد قسيساً إلى قريته (شيرانش)، وعاش سنوات وهو يفكر بالسفر



إلى الخارج. وللخروج من أزمته، قام بمحاولة جريئة، غيرت مجرى حياته إلى الأبد، حيث غير معتقده الكاثوليكي، إلى البروتستانتى (= الأنكليكاني)، وغادر وطنه كوردستان العثمانية، إلى بريطانيا، في ١٧ من آذار عام ١٩١٣م، وبالتحديد إلى أحد المراكز العلمية البريطانية، وهيكلية (وود - بروكة)، حيث بدأ بدراسة اللغة الإنكليزية، وفهرسة وتنظيم المخطوطات، ونسخ المخطوطات التي جلبها معه. وفي عام ١٩١٥م التقى بالآنسة (ايميلور)، وكانت طالبة علوم دينية من

(بيزنتيون). وأعاد المؤرخ الكنسي الدومنيكاني الفرنسي: (جان موريس فييه)، الكرة عليه، وعلى كتابه المنحول: (مشيحا زخا)، في مجلة الشرق السرياني، العدد ١٢ لسنة ١٩٦٧م، وأكد بأنه لم يعثر أحد على مخطوطة (أقرور) الأصلية.

لذا طلب بطريك الكلدان في العراق: (مار عمانوئيل الثاني)، المتوفى سنة ١٩٤٧م، من الآباء الدومنيكان في الموصل، بإيقاف طبع الكتاب.

وكرّد فعل من قبل (منكنا)، قام بطرح آراء جريئة معارضة لكنيستته الكلدانية

البحري (كولدزبهر المتوفى سنة ١٩٢١م)، الذي كان أول من شكك في الأحاديث النبوية، أثر كبير في تأليفه كتاب: (التأثير السرياني في أسلوب القرآن). وقد نُشرت هذه الدراسة بالإنكليزية سنة ١٩٢٧م، تحت عنوان: (Syriac Influence on the Style of the Qur'an).

وذهبت هذه الدراسة إلى أن هيمنة المعجم السرياني على لغة القرآن، بلغت نسبة وصلت إلى ٧٠٪، بينما توزعت بقية النسب على الحبشية (٥٪)، والعبرية (١٠٪)، واليونانية القديمة (١٠٪)، والفارسية (٥٪). والحق، أنّ (منكنا) لم يبن عمله على مستندات في البحث علمية، أو على بحث في الإحصاء دقيق، يمكن الاطمئنان إليه.

وحين لاحظ المستشرق الاسترالي (آرثر جفري Arthur Jeffery)، المتوفى سنة ١٩٥٩م، أن (منكنا) أرجع قسماً من (الدخيل في القرآن) إلى أصول سريانية، كتب سنة ١٩٣٨م (معجم المفردات الأجنبية في القرآن)، وصدر الكتاب في طبعته الأولى بالإنكليزية سنة ١٩٣٨م تحت عنوان: (The Foreign Vocabulary of the Quran)، "أكد فيها أن المسيحية المعروفة للعرب قبل الإسلام كانت من نموذج سرياني هو النموذج اليعقوبي (=منوفستي - أصحاب الطبيعة الواحدة)، أو نسطوري"، ولاحظ أيضاً أن نصوصاً إسلامية متعددة،



الفونس منكنا

(البرويج)، تدرس معه، فتعرّف عليها، وتزوجها في عام ١٩١٦م، وأنجبت له ولداً وبناتاً. وانتقل في نفس العام إلى (مكتبة جونرايلاند)، التابعة إلى (جامعة مانجست)، للعمل كمسؤول لقسم المخطوطات الشرقية، والتي تضم مخطوطات قديمة عربية وسريانية وتركية وفارسية، وعاش بقية عمره في مدينة (مانشستر)، ومات فيها سنة ١٩٣٧م بصورة مفاجئة عن ٥٩ عاماً.

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام (الفونس منكنا) بمخطوطات القرآن الكريم، راجع في اعتقاده إلى أن اللغة السريانية، خليفة اللغة الآرامية القديمة، لها تأثير مباشر على مصطلحات وأسماء الأعلام القرآنية وحتى في بعض المفردات الأساسية القرآنية، وكانت نتيجة هذه الجهود، وإطلاعه على كتاب (دراسات محمدية)، للمستشرق اليهودي

(مكننا) حول التأثير السرياني، والذي أثار جدلاً واسعاً بين الدارسين الغربيين، وهو بعنوان (قراءة سريانية آرامية للقرآن: مساهمة في فك شفرة اللغة القرآنية) (الطبعة الأولى بالألمانية سنة ٢٠٠٠م)، تم ترجمتها إلى الإنكليزية سنة ٢٠٠٢م، بعنوان:

The Syro-Aramaic Reading of the Kuran: a Contribution to the Decoding) (of the Quranic Language ويعمد (لوكسبارغ) في مرّات عديدة إلى تغيير حروف بعض الكلمات، مع المحافظة على رسم الكلمة قبل الإعجام، وهو بذلك يستعيد صورة المصاحف الأولى، ويبدّل أحيانا مواقع الحروف في الكلمة موضوع البحث الفيلولوجي، بلو يغيّر كلمات برمتها.

والحقّ أنّ التحريّات الفيلولوجية التي أنجزها (لوكسبارغ)، بالشكل الذي ذكرنا سابقاً، كانت سبباً مباشراً في أن توجه إليه عدّة انتقادات، من أهمها: اختياره المنهجية المقلوب، بتعويله على (لسان العرب)، في فك غموض معنى الكلمة القرآنية. ومنها: أن ردّه غموض بعض الكلمات القرآنية إلى أخطاء في الرسم، وفي ضبط القراءة المناسبة، تحليل لا يمكن قبوله، إذ من المستبعد أن يذهل العلماء المسلمون عن أخطاء محتمة من هذا القبيل، طيلة ما يزيد عن أربعة عشر قرناً. ومنها أيضاً: طغيان النزعة التخمينية على بحشه الفيلولوجي، فضلاً عن عدم استفادته من حصيلة جهود قرنين من الدرس الفيلولوجي،

تذكر اتصالات (محمد) مع مسيحيين سريانيين أو عرب!.

كما أعلن أن هناك ٣١٤ كلمة دخيلة على المعجم القرآني، رتبها حسب حروف المعجم في العربية، وقام منهجه على الخطوات الثلاث التالية: أوّلاها رصد معنى الكلمة الدخيلة في عدد من كتب التفسير القرآنيّ، (خاصّة تفاسير: الطبري، والزمخشري، والبيضاوي)، ومن كتب علوم القرآن (خاصّة: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي). وثانيّتها: تعيين معنى الكلمة لغة في المعاجم العربية، مثل (لسان العرب)، لابن منظور، و(المعرب) للجواليقي. وثالثتهما: ضبط أصول الكلمة، موضوع الدرس، في السريانية الآرامية، والعبرية، وذلك بإثبات رسمها، وتعيين دلالتها.

غير أنّ هذا التمثلي المنهجيّ الذي أقام عليه (جفري) بحشه، يبقى محدوداً الجدوى، وعلّة ذلك أنّه لا يمكن الاستدلال على مرجعية لغوية لنصّ ما، بالتعويل على ما أُلّف لاحقا (تعيين معنى كلمة قرآنية بالرجوع إلى لسان العرب لابن منظور) مثلاً، حسب الباحث التونسي (يسام الجمل).

وهذا الخلل المنهجيّ لم يسلم منه أيضا الكاتب الألماني، السوري الأصل، الذي يوظف اسماً مستعاراً: (كريستوف لوكسبارغ)، في كتابه الذي تبنى فكرة

كان في نية (منكنا)، ومن جاء بعده من المستشرقين، وغيرهم من الباحثين العرب، الذين نسجوا على منوالهم (= أبو موسى الحريري، نبيل فياض - نموذجين)، الادعاء بأن القرآن الكريم لم يكن موجوداً زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، بل تمت كتابته فيما بعد، لتبرير الفتوحات الإسلامية. ومن جانب آخر، التأكيد بأن القرآن كان مكتوباً باللغة السريانية، وأن العرب المسلمين غيروا فيه، وأضافوا الآيات التي تؤكد نزوله أو ظهوره باللغة العربية، في مرحلة لاحقة في العصر الأموي. غير أن الرياح لم تجر بما تشتهي السفن، فقد أكد الخبراء الغربيون أن النسخة الجديدة ترجع إلى عصر الخليفة (عثمان بن عفان)، تحديداً، ومكتوبة بالخط الحجازي، وليس السرياني.

لقد زور رجل الدين المسيحي، والمستشرق فيما بعد: (منكنا)، الدين والتاريخ المسيحي، واتهم من قبل بطريكه: (مار عمانوئيل)، ورجال الدين الكلدان: العراقيين، والفرنسيين، والألمان، بعدم الأمانة (= تزوير المخطوطات)، والمصادقية. فما بالك بالدين الإسلامي، الذي يعد في نظرهم - على أقل تقدير - إحدى الهرطقات المسيحية؟، وأن القرآن الكريم إحدى مختصرات العهد الجديد؟! □

بما أنه لا يبيّن عمله على البحوث السابقة في هذا الباب، فقد درس حوالي ٧٥ حالة وردت في المصحف، وتبني فرضية وجود ما يُسمى بـ (قرآن أصلي)، استعملت فيه عدّة تعابير سريانية "أي إنّ في القرآن فقرات عديدة لم تُكتب أصلاً بالعربية، بل كُتبت بما يسميه (لغة مزيج)، جمعت بين العربية والآرامية.

وغني عن القول إن هناك اختلافات بين نصوص القرآن الواردة في المخطوطات القديمة، قبل التنقيط والتحرّيك، وبين المصاحف التي هي الآن بين أيدينا. إلا أن هذه الاختلافات تنحصر في أنواع الخطوط العربية، وتنقيط الأحرف، وطريقة ضبط الكلمات وتشكيلها. فالاختلافات ليست في المضمون، وإنما في طريقة الكتابة الموجودة، وتتعلق بالخطوط العربية، وعلامات الضبط، والتجويد، والعلامات النحوية، التي ظهرت في مراحل تاريخية متأخرة. وعلى ذلك، فهي اختلافات تتعلق بالشكل، وطريقة التدوين، وليس لها علاقة بنصوص القرآن الكريم.

وتصعب قراءة هذا النوع من الكتابة إلا على المتخصصين في الخطوط، إذ ينعدم فيها التنقيط تماماً، ويكون على القارئ أن يدرك أيّاً من هذه الأحرف هو المقصود في كل حالة.

الزكاة في القرآن



سالم بابه شيخ البرزنجي

والتعريفات، والمصطلحات الجامدة، في كتب الفقه، وغيرها.. ونقصد بالجامدة أنها لا تعطي أثراً على النفس المؤمنة، أثراً إيمانياً إيجابياً، حركياً، وليس عاطفياً. وذلك لحصر معانيها، وتجريدها من مادتها، ولوازمتها، والقضايا المرتبطة بها أساساً، وتحويل معانيها ومدلولاتها إلى غير ما جاءت من أجله. أما كلمة (الزكاة)، فقد وردت في القرآن الكريم، ولها مدلولات عميقة جداً، هذا من حيث العمق، ولها أيضاً دلالات واسعة جداً، وهذا من حيث الأفق. فمن حيث العمق، تتعلق بالإنسان نفسه، والنفس وتزكيتها، ومن حيث الأفق، تتعلق بالإنسان الآخر، والناس وإسعادهم، ونفع الخلق. فإذا وردت لفظة (الزكاة)، فإنها تشير إلى تطهير النفس،

كما لقد فهم كثير من الناس من (الزكاة) غير ما قصد منها في القرآن الكريم، فعندما ينطق بهذه الكلمة، ونسمع بها، أو نقرأها في كتاب، فالأول وهلة نذهب إلى المعنى والأحكام الفقهية الموضوعة لها في كتب الفقه، ويظن كثير منّا أن (الزكاة) في القرآن ليس لها معنى إلا هذا.. وهذا خطأ وسوء تقدير لهذه الكلمة، فهذه الكلمة لها مدلولها الخاص في القرآن، وموضوعها هو (النفس)، ذات الخصائص الكثيرة، وذات الغرائز المتعددة، والتي تجعلها تتعلق بالدنيا وزينتها، ثم إنها مجبولة على جلب المنافع لها، ودرء المفساد عنها. فـ(الزكاة)، كغيرها من الكلمات القرآنية، حوّل معناها إلى ما حدد لها من المعاني،

وتزكيتها. وإذا وردت لفظ الصدقة، والإنفاق، وغيرهما، فإن فيها إشارة إلى الإنسان الآخر، وإسعاده، ومعونته. فمن هنا نستطيع أن نرسم للزكاة خطين، خطأ عمودياً، وخطاً أفقياً. فالخط العمودي يتعلق بالذات، من حيث تطهرها وغورها وتقدمها، وصعودها في درجات الكمال والقرب، أو تأخرها. وأما الرسم الأفقي، فيتعلق بما للنفس من عطاء وإحسان، وتعدد الخيرات، وبذل للمعروف، ونفعها للناس والخلق.

فالعطاء والإنفاق والإحسان نتاج تركيبة النفس، أما الحصول على زيادة الأجر، ومضاعفته، فمرهون بحسن الأداء في العطاء والإنفاق. ويستلزم هذا منع النفس من الإتيان بما يفسد الأجر، وهذا أيضاً من نتاج تركيبة النفس. قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١. في هذه الآية الكريمة أشار الله تعالى إلى أمرين:

الأول: الذين ينفقون في سبيل الله تعالى. الثاني: ما أنفقوه في سبيل الله تعالى، سواء كان ما أنفقوه كثيراً أو قليلاً. فالمثل جاء مشيراً إلى كلا الأمرين في الآية معاً، فالحبة هي مثل المؤمن المؤتي للزكاة،

فالمثل وقع على المنفقين، وما ينفقون. فما وقع على المنفقين، يحمّل على تشبيه المنفق بالحبة، في خيرها ونمائها. وما وقع على النفقات، فيحمل على تشبيه تعدد العطاء لدى المؤمن، وكثرة خيرها. وكذلك جاء الأجر أو الثواب الذي يعطيه الله تعالى المؤمن في الآخرة، مطابقاً لوصف الحبة والسنايل في نفس الآية.

فالنفس البشرية إذاً تشبه البذرة، في خصائصها ومميزاتها، كلما زكت ونمت، زادت تلك الخصائص والمميزات، وصارت بذرة مثمرة نافعة مباركة. وكلما دسّت وعصت، نقصت تلك الخصائص والمميزات،

الأول: الذين ينفقون في سبيل الله تعالى. الثاني: ما أنفقوه في سبيل الله تعالى، سواء كان ما أنفقوه كثيراً أو قليلاً. فالمثل جاء مشيراً إلى كلا الأمرين في الآية معاً، فالحبة هي مثل المؤمن المؤتي للزكاة،

لأن النفس مجبولة
على حبّ الخير
لذاتها وحدها، مما
يجعلها حريصة
على الدنيا،
ويصيها بالشح
والبخل وحب
العظمة. وربما
تحسد وتقتل
وتغصب وتسرق
لتحصل على
رغباتها، وتمنّ ما



صارت بذرة شجرة غير نافعة، أو بذرة
شوك، أو بذرة شجرة أو نبات سيئة.

فالوسيلة المتاحة للإنسان، والسبب الذي
جعل في يديه، لتعريب النفس بمعارج الرقيّ
الإيمانيّ، وزيادة تلك الخصائص والمميزات
الممكنة للنفس في الدنيا، هي ما يحصل عليه
الإنسان من العالم المادّي، من رزق ومال
وعلم وأمالك وممتلكات، مما سخر له، وجعل
تحت تصرّفه وقدرته، ومن ثمّ اختبر به، وأن
لا يعلّق المؤمن نفسه به، حتى يفرغ القلب
لأمر الله تعالى وحده، من غير شكّ يعارض
طمأنينة القلب، وأمن الإيمان، ومن غير شهوة
تعارض إرادته.

فالمؤمن يعمل على النفس.. ويربيها تربية
مستمرة، فلا يتركها تجري وراء الملذّات
والشّهوات، وما جبلت عليه من حبّ الخير،

إن هي أحسنت إلى غيرها.
فالله سبحانه يعلمنا بأن الذي خلق وأعطى،
هو وحده، ويأمرنا بإضافة نعمه إليه، لأنه هو
مالكها الأصليّ. ويأمرنا بالعطاء، لأنه سبحانه
جعل العطاء وسيلة لتزكية النفس، والحصول
على كمالها، وسعادة الآخرين في الدنيا،
مشوّقاً إيّاها زيادة الأجر والثواب في الآخرة.
فالإنسان غير القادر على العطاء
والإحسان، هو من لم يركّ نفسه. والإنسان
غير المزكّي، عقيم العطاء والإحسان. فإذا
زكّي نفسه، أصبح إنساناً معطاءً، خيراً،
محسناً. فالنفس الزكيّة، هي البذرة ذات
الخصائص العالية، والمميزات الحسنة،
وعطاؤها، وبذل المعروف منها للناس، هو

إشارةً إلى أن العبادة ارتبطت ارتباطاً كلياً بهاتين القاعدتين، وأن العبادة بأصورها وفروعها وأشكالها المتنوعة ترجع إلى هذين المبدأين.

ويوضح هذا، أن الله سبحانه أراد أن يعبد بأمره ونهيه، لكن باختيار كامل من الإنسان، فما دام أن الله تعالى لا يحتاج إلى شيء، ولا يعجزه شيء، ولا ينفعه شيء، ولا يضره شيء، أناط أمره ونهيه بما فيه صلاح العبد وسعادته. وما دام الإنسان لا يقدر أن ينفع الله تعالى بطاعته له، ولا يقدر أن يضره بمعصيته، أنيطت عبادته لله تعالى بالإحسان إلى خلقه والناس جميعاً.

فالعبد المؤمن يعرف ربه، ويقر بما له من كمال ونعم، فيضيفها إلى الله تعالى، ويؤدي شكرها، ويحمده عليها، ويجد أن الطريق إلى رضا الله تعالى، ورحمته، ممهدة، ومجولة في الإحسان إلى الخلق والناس، فيلتمس رضا الله ورحمته بالإحسان إليهم وإسعادهم، عندئذ تزكو النفس، وهذا معنى (الزكاة).

فعلى هذه المعاني ركز القرآن على (الزكاة) تركيزاً كثيراً، وقرن بينها وبين الصلاة في أكثر المواضع. وقد تأتي كلمة (الزكاة) مفردة وغير مقرونة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ البينة: ٥. وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ

الثمره. فالبذرة تبين الرسم العمودي للزكاة، والثمره، تبين الرسم الأفقي لها.

وليبيان ذلك أكثر، نستطيع القول بأن مبادئ الإسلام العلمية، والعملية، في تفعيد الأعمال والأحكام معاً، مبني على قاعدتين وجوديتين حقيقتين، وهما:

الأولى: أن الله تعالى لا ينفعه شيء، ولا يضره شيء.

الثانية: أن الإنسان لا يستطيع أن ينفع الله بشيء، أو يضره بشيء، ولكنه يستطيع فعل هذا أو ذلك مع الناس والخلق.

وإلى هاتين القاعدتين أشار قول الله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الذاريات: ٥٧ - ٥٩. فقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾، يشير إلى القاعدة الأولى، إذ إن حقيقة وجود الله تعالى، أن وجوده لا من شيء، فهو أزلي، له الكمال والجمال والجلال المطلق، لذا لا يحتاج إلى شيء. وإلى القاعدة الثانية أشار قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، فعكس الظلم هو العدل والإحسان. والجدير بالذكر هنا أن تلك الآيات جاءت عقب قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦.

الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾. فهذه الآية فرقت بين إتيان المال وإتيان (الزكاة). فالآية واضحة جلية في أن (الزكاة) غير ما ينفقه المؤمن في وجوه الخير، فد (الزكاة) تحصل للنفس كلما قامت بفعل الخيرات والعطاء والإحسان، وليس العطاء في حد ذاته زكاة!! وإنما به تزكو النفس، وتصلح، وترتقي في مدارج القرب لدى الله سبحانه.

وعلى هذا، فعلى العبد دوما (إتيان الزكاة)، كما عليه إقامة الصلوات. فالصلاة فيها تمجيد للرب، والاعتراف بربوبيته، ورحمته، ونعمه، وحمده على ذلك كله. و(الزكاة) تهيئة للنفس، وإعدادها، حتى تكون في وجودها سبب خير ونفع للعباد. أما من يخرج زكاة ماله سنوياً، ويظن أنه بذلك قد قام ب(إتيان الزكاة)، فخطأً ووهماً.. لأن إخراج (الزكاة)، بالمفهوم الفقهي، جزء بسيط من المعنى الكلي لإتيان (الزكاة). والعبارة التي يحسن استخدامها لعبارة إخراج (الزكاة) هنا، هي: الصدقة وإتيان المال، كما في الآية.

وربما يعطي أحدنا زكاة ماله، بالمعنى المتداول في كتب الفقه، لكن استعداداته النفسية، وحالته الإيمانية، ونواياه القلبية، تقل عن المستوى المطلوب، أو تعدم، فلا يتزكى بذلك. لأن من علامات زكاة النفس، أن يتجدد العطاء الخيري من المزكي دوماً، أي:

أَنْكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿المزمل: ٢٠﴾

وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ البقرة: ٤٣. وجاء ذكرها مع التقوى: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٥٦. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

أنه على استعداد كامل، ومهيأ تماماً لفعل الخير والبر، أينما كان، مع أيّ كان، في أيّ وقت كان، فتحصل له سعادة روحية، واطمئنان قلبي، وراحة نفسية، ولذة إيمانية، والإحساس بالتقدم من منازل القرب الإلهي. مما يجعله ينظر إلى ما له من مال ورزق أسباباً لشكر الله تعالى، ووسيلة لفعل الخير وتزكية للنفس، وسبباً لسعادتها الدنيوية والأخروية، ويتعد تمام البعد عن النظر السطحي، لدى الإنسان العادي، للمال وللدنيا.

وكلمًا نظرنا في الآيات القرآنية.. نرى أن إتيان (الزكاة) لا يختصّ به الأغنياء دون الفقراء، كما هو معروف في كتب الفقه، ومدون ومتداول فيها.. بل إقامة الصلاة، وإتيان الزكاة، مطلوبان من كلّ عبد مؤمن. وإنما اختلاف منزلتهم، ودرجاتهم، عند الله، باختلافهم في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. فكما أن إقامة الصلاة لا تختصّ بالأغنياء، فد(الزكاة) كذلك لا تختصّ بهم: أما الأغنياء، فإنهم مأمورون بتأدية نوع خاص من الصدقة، وهو إخراج المال، بمقدار مخصوص، في مال مخصوص، في زمن مخصوص، لأصناف مخصوصة، تأخذها جهة مخصوصة، وهذه الجهة الآخذة هي الحكومة الإسلامية، إن وجدت، ومؤسساتها المالية والاقتصادية، والتي كانت تسمى في زمن الرسول (صلى

الله عليه وسلم)، والخلفاء من بعده، ب(بيت مال المسلمين)، والعاملين عليها. ويبدو أن هذه المؤسسة المالية في الإسلام، وإن فرضت (الزكاة) على الأغنياء، إلا أنها كانت تقبل ما كان يتبرع به الفقراء والمساكين، وغيرهم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٧٩. ففي هذه الآية المباركة دلالة على أن المؤمن ممدوح عند الله بإنفاقه ما يجد في سبيل الله، وعمله محمود وإن قلّ. وأن الله تعالى يسخر من يسخر من الذين لا يجدون إلا جهدهم، ولهم عذاب أليم. والمقصود هنا من الآية.. أن الإنفاق والصدقة غير مخصوصان بالأغنياء دون الفقراء، بل بهما على حد سواء، لكن كلّ بما في وسعه، وبما في مقدرته، وما يقدر عليه. وبذلك يؤتي كلّ واحد منهما بما ينفق ويتصدق (الزكاة)، والعبرة عند الله تعالى بفهم العبد عن الله، ونيتة له، لا بكثرة ما ينفق ويبدل ويعطي ويتصدق. وإلى هذا المعنى أشار النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) بقوله: (لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) صحيح ابن حبان (٦٩٩٤). وهذا لأن نفوس الأصحاب

تركت، وبالتالي كانت زكية ومرضية عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر: ٩.

فالبخل والمنع يمنع النفس من النمو والبلوغ إلى الكمال، وليس هذا فحسب، بل إن طريق البلوغ إلى الكمال الممكن للنفس أن يبلغها - وكما أشرنا إليه فيما سبق - مجعول في السخاء والإنفاق والإيثار. فإذا تخلصت النفس من البخل والحسد والغلّ والحقد وحب الخير، وكل ذلك بسبب أن النفس لا تحب ولا ترضى أن يشاركها، في المنافع الدنيوية، والمصالح المادية، أحد، فإنها حينئذ تحصل على الطهر (الزكاة)، مما يجعلها نفساً مباركة معطاء نافعة، فحينئذ تستحقّ الفلاح، والحصول على رضا الله تعالى.

ومن المعلوم أن (الزكاة) - بالمعنى المتداول في كتب الفقه، وعند الفقهاء - فرضت في العهد المدني. وأما (إتيان الزكاة)، فقد أتى ذكرها مع الصلاة والتقوى في العهد المكّي. ما يعني أن (إتيان الزكاة) ليس مرادفاً لإخراج مال مخصوص، بمقدار مخصوص، في زمن مخصوص، لأناس مخصوصين، كما يسمى هذا في كتب الفقه.

بل (إتيان الزكاة) هو التوقّي من شحّ النفس، وما يقيدها بالمتاع الدنيوي، والنظر إلى العالم المادّي نظرة إيمانية، نظرة صائبة حقيقية للمادة. هذه النظرة الإيمانية تجعل المؤمن لا يغرّ بالدينا، ولا يدع ولا يجعل للشيطان إلى نفسه سبيلاً، يدخل عليها، ويخدعها ويزلّها ويضلّها. ومن ثم لا يغدر، ولا يظلم عباد الله على متاع قليل من الدنيا، ولا يمرّ على ظهور العباد، ليحصل على المناصب والمنافع، ولا يظلمهم ما إن تولى أمرهم، ولا يطمع فيما في أيديهم، ولا يؤثر لنفسه عليهم بشيء من متاع الحياة الدنيا.

فإذا اهتمّ كل واحد من المجتمع المسلم بإتيان (الزكاة)، سهل العيش عليهم، وقويت روابطهم، وقلّ فيهم المنكر والذنوب، وانعدم العدوان فيما بينهم، وزاد فيهم التسامح والعفو، واهتم كل لأمر الآخر، وبذلك تتمّ هدايتهم في الدنيا، ويحصلون على السعادة في الآخرة.

فإتيان (الزكاة) بيّنه القرآن أحسن تبيان، وفسّره بأحسن ما يكون من التفسير. ففي بداية نزول الوحي على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم)، ورد هذا اللفظ يحمل معانٍ سامية، تصلح بها النفس، وتصلح بها علاقة الإنسان بالإنسان الآخر، وتحسنها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ

الأغنياء، بل على ذو سعة أن ينفق من سعته، ومن قدر عليه رزقه، أي: قلّ ماله، فلينفق مما آتاه الله تعالى. وإلى هذا المعنى يحمل قوله (صلى الله عليه وسلم): (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ يَشِقُّ تَمْرَةً، فَإِنَّ لَمْ تَجِدُوا فِيكَلِمَةَ طَيِّبَةٍ) مسند أبو داود الطيالسي / ١١٣١.

وهنا أريد أن ألقى الضوء على مسألة هامة جداً، وهي إن إخراج (الزكاة) - كما هو معروف - يؤدي إلى الحكومة الإسلامية، ومؤسساتها المالية والاقتصادية، فعندما يوجد كيان إسلامي مستقل، ومؤسسة مالية إسلامية لجمع الصدقات والتبرعات، وتوزيعها على الفقراء والمساكين، وفي وجوه الخير، وما فيه صلاح العباد والبلاد، فعندئذ يفرض على الأغنياء إخراج صدقات أموالهم، بالطريقة المذكورة في كتب الفقه للأصناف الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٦٠. فأخذ الصدقة في هذه الحالة إجباري، من قبل الحكومة الإسلامية، على أغنياء المسلمين، وتودع في بيت مال المسلمين، بدليل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة: ١٠٣.

خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى: ١٤ - ١٧. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ الليل: ٥ - ٢١. وجاءت الإشارة إليها في قوله تعالى، بغير ذكر لفظ (الزكاة): ﴿إِنَّهُ كَانَ لَأُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ الحاقة: ٣٣ - ٣٤. وسورة الماعون كلها تدور على معنى الصلاة (الزكاة): ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ. فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الماعون: ١ - ٧.

ف(الزكاة) معناها يدور حول إيصال النفع، مهما كان ضئيلاً، وأياً كان نوعه، إلى الغير والناس، مشاركة لهم في ما هم فيه، وقضاء لحوائجهم. وتدور أيضاً على معنى محبة الإنسان في وصول الخير والمنافع إلى المحتاجين والفقراء والمساكين، وحث الآخرين على ذلك. قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الإنسان: ٨ - ٩. وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ الطلاق: ٧. وهذه الآية واضحة في أن الإنفاق لا يختص به

ربما يطلق لفظ (الزكاة) على النفقة والصدقة، إطلاق اسم النتيجة، أو الغاية، على الوسيلة. ومن هنا أخطأ الناس في فهم (الزكاة)، وراحوا يفهمونها بالمعنى الفقهي، والمستخدم عند الفقهاء، فقط. وهذا خطأ، فد (الزكاة) هي عملية تحتاج إلى التكرار، حتى تصفو النفس وتصلح، وتقطع علاقتها بالعالم المادّي.. العلاقة المضرة لها، وتبقى على علاقة نسبية بالعالم المادّي، مما يجعلها تسير سيراً صحيحاً في الحياة الدنيا، وتصير نفساً سالحة، سخاء، معطاء.

والناظر في الآيات القرآنية، يرى أن الله تعالى في القرآن عظم شأن الإنفاق غاية التعظيم، وأمر به، ومدح المنفقين، وذكر الإنفاق كأبرز صفات المؤمنين وأعظمها. وقد شدد القرآن أيضاً فيمن لا ينفق من أمواله في سبيل الله، ويكنزه لنفسه، ويحرم منه غيره. وقصة (أصحاب الجنة)، وقصة (قارون)، وغيرها، خير برهان على هذا. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥. فالآية

أما من يخرج صدقات ماله، على ما جاء في كتب الفقه، فليس بموتٍ للزكاة، بالمعنى القرآني، بل يبقى عليه نفقات أخرى واجبة، بحسب البيئة التي يعيش فيها، والذين يعيش بين ظهرانيهم، والحالة التي يعايشها المجتمع الإسلامي في زمنه. ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ) مصنف ابن أبي شيبة/٣٠٩٩٦. والبيهقي بلفظ: (ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه) ٣٣٨٩. وكذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): (يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعَمْنِي، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ اسْتَطَعْمَتَنِي وَلَمْ أُطْعَمْكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَطَعْمَكَ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أُطْعِمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ اسْتَسْقَيْتَكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ، فَلَمْ تُعِدْنِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ، فَلَوْ كُنْتَ كُنْتَ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي) صحيح ابن حبان/٧٣٦٦.

صريحة فيمن يمنع الناس، وذوي الحاجة منهم، من الخير الذي عنده، ولا ينفقه في سبيل الله، ولا لنشر دينه ونصرته.

يُنْفِقُونَ ﴿السجدة: ١٦﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً



وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد: ٢٢﴾ . وقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَابِ آلِ عِمْرَانَ: ١٧﴾ . فذكر الله تعالى أن الإنفاق من صفات المؤمنين والمتقين والعباد الذين يرضى عنهم، والصفة في تحقيقها في شخص تحتاج إلى التكرار والاستمرارية. فالزكاة ليست صفة للأغنياء فقط، ويحرم منها غيرهم، فكل فرد في المجتمع الإسلامي ياتيانه (الزكاة)، بالمفهوم القرآني، يشارك أخوته في تصعيد المستوى المعيشي لغيره، ولتجمعه، و جلب

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ البقرة: ٣ . وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٧٤ . وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤﴾ . وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ، إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ) مختصر صحيح البخاري/ ٢٣٨٣. والكرم السخاء والعطاء، وكلما اقتدر المؤمن على فعل الخيرات، والابتعاد من مساوئ الأخلاق، وسيء الخصال، كلما كانت نفسه تزكو شيئاً فشيئاً، فحصل له بذلك نفس طاهرة زكية، ويكون في عمل الخير دائماً لربه، ومع الناس.

وأما تعلق (الزكاة) بالمال، وما يمتلكه المؤمن من منافع وخيرات، فلأن النفوس تتعلق بالمال والممتلكات، وما في يد المرء، تعلقاً شديداً. وهذا التعلق يعيق النفس عن الطهر والرقى، ويسبب لها الطغيان، فتستغني، وتتكبر، وتستعلي على الناس. ثم إن ما يملكه المرء من مال ومتاع الحياة الدنيا، ومنافع شتى، وكل ما جعل بين يديه، من قبل الله تعالى تكويناً، إنما هو بقصد الاختبار، والتمتع الحلال.

ولولا المال والمنافع، ما وجدت الحياة بالصورة التي نعتادها اليوم. وتخيل الحياة بدون المال والمنافع والعلوم والممتلكات والقدرات الإنسانية، التي توجد عند هذا، ولا توجد عند ذلك، على أي صورة كانت تكون.

فاختلاف الأموال والأرزاق والممتلكات بين الناس، سبب التنوع في الحياة. وسبب لتكون الحاجة بين الناس، كل أنواع الحاجة، وفي كل طبقة من طبقات المجتمع، مما جعل

الرفاهية لهم. مما يجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً متكاملًا ومتناسكاً ومتكافلاً.

ف(الزكاة) لا تحدد بمقدار معين، من شيء معين، كما هو الحال في إخراج (الزكاة) بالمعنى الفقهي. وإنما (الزكاة) التي أمرنا بإتيانها بعد إقامة الصلوات، إنما تحده البيئة التي يعيش فيها المؤمن، وحاجة العباد الذين حول المؤمن، إلى فيما في يد المؤمن من منافع وخيرات، ويحددها الأشخاص الذين يرتبطون بالمؤمن، بنوع من الأنواع. فالمؤمن يجعل من وجوده مصدر خير ونفع للناس جمعاء، كالشجرة المثمرة تماماً، خضرتها وجمالها وبهجتها، وخيراتها ومنافعها، وظلالها وثمارها، ينبسط المرء برؤيتها، ويأكل من ثمارها، ويستظل بظلها الناس والدواب والطيور. فإذا جعل المؤمن من نفسه نفساً زكية، فالعطاء والنفع والإحسان يكون ملكة لهذه النفس. ففي كل وقت، وفي كل مكان، وفي كل الأحوال، ومع كل أحد، يتجدد هذا العطاء، وهذا النفع، وهذا الإحسان.

ف(الزكاة)، بهذا الاعتبار، هي زيادة ثمار النفس، بكل أنواعها وأشكالها، وبكل طعم وحلاوة ولون للناس. لذا، نرى من المؤمن المزكي كل الخير، وكل ما تنبسط إليه النفوس، في كلامه، في فعله، في خلقه، في سلوكه، ومعاملته، في أحواله كلها. ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (لا

على حوائجه، عقبة له أمام تركية النفس، والحصول على رضا الله تعالى. وينظر إلى المال، والمتاع الذي بين يديه، على أنه وسيلة تقربه إلى الله، وإلى الناس، فينفق، ويتصدق، ويحسن إلى الناس، وينشر العلم والخير بينهم. فالمال إذا كثر، وزاد فوق حاجة أي إنسان، فوجوده كعدمه، إذا ما لم يجعله في نفعٍ وخير. وكلامنا هذا ليس فيه ما يناقض الكسب والادخار والتجارة، وإنما نعني أن المال كلما زاد، توسع الإنسان في ادخاره واستعماله في التجارة، فينسيه ذلك ربّه، ونفسه، ومن حوله، فيدور في دائرة مغلقة. مما يعني أنه يجمع المال، ثم يحاول في زيادته، ثم يجمع المال، ثم يحاول في إكثاره، ثم.. ثم.. إلى حد الإلهاء عن الله، واليوم الآخر، وعيش من حوله، وحاجتهم إلى ما في يديه. قال تعالى: { أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } التكاثر: ١ - ٢.

ولما كانت أموال (قارون) قد أنسته نفسه، وربّه، ومن حوله، خسف الله تعالى به وبداره وأمواله وكنوزه الأرض، لأن كونه إنساناً صار عديم الفائدة، وكنوزه وثرواته صارت بلا قيمة، له، ولغيره، فجاء الجزء من جنس العمل، ألا وهو الخسف، أي: محوه ومسحه من الوجود في الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ القصص: ٨١.

الحياة في ناحية جميلة ورائعة للغاية، ومن ناحية أخرى أوجدت الأغنياء والفقراء، والأثرياء والبؤساء. فالأمر بالسعي في إسعاد الناس، ومعاونتهم، هو مما أمر به الخالق الرحمن الرحيم، للتخلص من جشع النفس وشحها، وتعاليتها وتجبرها، وأنانيتها. مما يدفع بالمرء لارتكاب المظالم والغدر والقهر، والغصب، وكل أنواع أكل المال الحرام، والحقوق، ومساوئ الأخلاق، مثل الكذب والحيل وعدم الرفاء بالعهد، وغيرها.. مما يؤدي إلى إراحة النفوس وتزكيتها وارتقائها في مدارج العالم الروحي بعيداً عن العالم المادي المعهود لدى الناس، ولذلك قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة.

فالنفس الزكية، هي التي تخلصت من التعلق بالمادة، التي غايتها التكثير والإلهاء عند حصولها، والغم والهم والخوف عند فقدانها. فالنفس الزكية تحررت من كل الخصال النفسانية السيئة، وقيد وأغلال كلمة (أنا) والأنانية، فهي في تمتع وتنعم بما حصل لها بالإيمان والعمل الصالح، في العالم المعنوي والروحي. وأما في العالم المادي، فهي تنشر الحب والخير، وتبذل قصارى جهدها في إيصال الخير للناس، واستعمار الأرض، ولا شك بأنها تنعم بذلك أيضاً.

فالؤمن المزكي ينظر إلى المال، على أنه في الحصول عليه، وفي بقاءه عنده، إذا ما زاد

به، وصرت مفسداً، إذاً لا تنسى أن الله لا يحب المفسدين.

ولو نظرنا في الإسلام، إلى أسسه وتعاليمه وتوجيهاته، نرى أنه حث الإنسان على إسعاد غيره، سواءً بالعلم، أو بالعمل، أو بالمال، أو بالخلق وحسن الكلام. وجعل الإنفاق، والصدقة، وإعتاق الرقاب، كفارات لذنوب يكثر وقوعها في الناس، كالحنث في الحلف، والظهار، وغيرها. وحتى في مناجاة رسول الله، في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نرى أن الله تعالى أمر بالصدقة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المجادلة: ١٢. كل هذا لأجل أن يكون الإنسان في وجوده مفيداً، والمجتمع سعيداً، والرب سبحانه راضياً.

لا تتمتع بهذه الحياة وتعلق بها تعلق الرضيع بالأم المرضعة، فقط لا تنسى نصيبك منها، في هذا الإطار الضيق تمتع بالحياة، وأحسن كما أحسن الله إليك، ففي الآخرة تتمتع بكامل التمتع بالحياة هناك، ويحسن إليك على الدوام. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن: ٦٠ □

فالأغنياء، والولادة، وغيرهم، ممن لا يؤدون حق الله، وحق العباد، فيما آتاهم الله في كلِّ زمان، وكلِّ مكان، وإن لم يخسف الله بهم في الأرض، على أرض الواقع، إلا أنهم، في وجودهم في الحياة الدنيا، كـ(قارون)، وكنوزه، يعدون في عداد الأموات والعدم، مع ما عليهم من حساب يوم القيامة.

فما في يديك.. مما آتاك الله تعالى، ابتغ به وفيه الدار الآخرة، وأنفقه، وتصدق به، وأعطه للمحتاجين، وتمتع به لنفسك بالمعروف، لا العكس. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧.

فالقاعدة هي: أحسن كما أحسن الله إليك، ابتغ الدار الآخرة، ولا تنسى نصيبك من الدنيا. فإنك إن لم تفعل ذلك، صرت تبغي الفساد في الأرض لا محالة، فحولك من بني جنسك من يقع في المشكلات بسبب الفقر وقلة المال والمؤونة، وهذا يقع في الذنوب والفواحش لنفس السبب، وأنت جامد متغافل، لا تحرك ساكناً، وبإمكانك إصلاح الأمور، أو بعضها، على الأقل، ويمكنك مشاركة الناس في همومهم، فإن لم تكن كذلك، صرت ممن تريد هذا الحال، وترضى

التنمية الاقتصادية

من المفهوم المادي إلى المفهوم الإنساني



صلاح الدين أحمد محمد
طالب دكتوراه



د. أمين محمد سعيد الأدرسي
أستاذ كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة صلاح الدين

السكان، بشكل فرص عمل، أو أنها كخلق الحالات الضرورية للاستمرار بالنمو، وتوزيع المنافع الاقتصادية، والاجتماعية، للتنمية، على أوسع عدد من أفراد المجتمع. أي أن التنمية الاقتصادية كان ينظر إليها، في عقدي الخمسينيات والستينيات، على أنها قابلية الاقتصاد على تحقيق النمو في الدخل القومي. إلا أن النتائج الاقتصادية التي أفضت إليها تجربة الخمسينيات، في هذه البلدان، كانت تشير إلى أن هذه الدول قد استطاعت تحقيق معدلات جيدة من نمو الدخل القومي، إلا أنها

لقد كان من أهم المقاييس للتنمية الاقتصادية زيادة معدلات نمو الناتج المحلي الإجمالي (GDP). وهذا النمو في الدخل هو الذي يؤدي إلى القضاء على الفقر، ومظاهر التخلف الأخرى. وعملية التنمية الاقتصادية، ضمن هذه المقاييس التقليدية، كانت تعد إجمالاً - خلال مدة الخمسينيات والستينيات - ظاهرة اقتصادية، تقاس بالزيادة السريعة في نمو الدخل القومي، والدخل الفردي السنوي. ونتيجة لمعدلات النمو المشار إليها، فإن فوائد التنمية الاقتصادية: إما أن تصل إلى عامة

العناصر الإنتاجية الأساسية، وفي نطاق تركيب أو تمويل الطلب على المنتوجات. أما المتغيرات المحددة من الفئة الأولى، فتشمل: اكتساب موارد إضافية جديدة، تراكم رأس المال، تزايد السكان، إدخال أساليب إنتاج جديدة محسنة، تحسين المهارات، تعديلات أخرى مؤسسية وتنظيمية.

وتقتزن التغيرات الحاصلة في تركيب الطلب على المنتجات، بالتغيرات الحاصلة في حجم السكان، وتركيبهم، من حيث فئات الأعمار، مستوى الدخل، ونمطه، وتوزيعه، الأذواق، الترتيبات المؤسسية، والتنظيمية الأخرى.

٥- التنمية، عملية يرتفع بموجبها الدخل القومي الحقيقي، خلال مدة طويلة من الزمن. يشترط في التنمية أن يستمر ارتفاع الناتج القومي الصافي. فالارتفاع قصير الأجل، كالذي يحصل خلال الدورة الاقتصادية، هو أمر ثانوي الأهمية. أما الأمر الأهم، فهو الاتجاه التصاعدي، البعيد المدى، في تطور الناتج القومي الصافي.

٦- إن تحقيق التنمية الاقتصادية، ضمن مفهوم رفع متوسط دخل الفرد الحقيقي، هو شرط ضروري، ولكن ليس كاف، لتحقيق الرفاه الاقتصادي. إذ إن الرفاه الاقتصادي يتطلب اتخاذ موقف قيمي، بصدد توزيع

لم ترفع مستوى المعيشة لشعوب تلك المناطق من العالم، فقد بقيت تلك الشعوب في حالة تطور بطيء. وهذا مؤشر يوضح أن هناك خطأ في أن يتصور المرء أن التنمية الاقتصادية يمكن أن تحصل عن طريق زيادة الدخل القومي في بلدان العالم الثالث، بدون النظر إلى عوامل أخرى ذات أهمية بمكان (١).

وعلى الرغم من أن (جيرالد ماير) و(روبرت بولدوين)، أستاذي الاقتصاد في جامعتي (وسليان)، و(هارفرد)، قد عاصرا تلك المدة الزمنية، إلا أن مؤلفهما: (التنمية الاقتصادية)، قد احتوى على نظرات متقدمة في هذا الاتجاه، يمكن الإشارة إلى أهمها (٢):

١- إن التنمية الاقتصادية هي عملية يرتفع بموجبها الدخل القومي الحقيقي خلال مدة من الزمن. وهو بهذا الحد أن الدخل القومي لا يعبر عنه هنا بوحدة نقدية، بل بكتلة من السلع والخدمات التي يمثلها.

٢- إذا كان معدل التنمية أكثر من معدل نمو السكان الصافي، ارتفع الدخل الحقيقي الفردي (أي متوسط الدخل الحقيقي).

٣- تعني كلمة (عملية) هنا: تحرك بعض القوى التي تفعل في السياق الطويل، وتجسد التبدل الحاصل في متغيرات معينة.

٤- ويمكن تصنيف أكثر هذه المتغيرات أهمية، على أنها تغيرات تتم في نطاق عرض

الكامل. وبالتالي، أصبح لا مفر من النظر في الاعترافات غير الاقتصادية في سبيل إعطاء تفسير كامل للتنمية. فالاقتصاد ليس جهازاً أو نظاماً آلياً، والقوى الاقتصادية لا تعمل كقوة الطبيعة، بل يجب أن تفهم ضمن إطار اجتماعي وثقافي(٥).

لقد استطاع العالم الاقتصادي (ميردال) أن يسمو بنفسه عن القيود الاقتصادية الضيقة،

الدخل، وتركيب الناتج، والأذواق، والأطراف الحقيقية، وعدد من المتغيرات الأخرى(٣). وهكذا يلاحظ أن نمط توزيع الدخل القومي، قد أكد عليه - هنا - كشرط لازم لتحقيق الرفاه الاقتصادي.

إن إعطاء نمط توزيع الدخل أهمية في تحقيق الرفاه الاقتصادي، هو إضافة مهمة في الفكر التنموي، للخروج من القوالب الاقتصادية



إذ عرّف التنمية الاقتصادية، تعريفاً شاملاً للجوانب الاقتصادية وغير الاقتصادية، بالقول: إن التنمية الاقتصادية تعبر عن: "التحركات الاقتصادية للنظام الاجتماعي ككل"(٦).

أما العالم الاقتصادي (بلاك)، فقد عرّف التنمية الاقتصادية بأنها: "الحصول على عدد من أهداف التقدم"، التي فصلها بالآتي(٧):

- تحقيق ارتفاع في مستوى الإنتاجية.
- إنجاز العدالة الاقتصادية والاجتماعية.
- إدخال التكنولوجيا الحديثة.

الجمادة، وتقديم نمط إنساني لعملية التنمية، يتجاوز الأطر المادية. كما لا نبخس محاولة البعض إضافة بعض المؤشرات الاجتماعية، للتخلص من محدودية النظر إلى التنمية الاقتصادية، مثل: درجة الأمية، ومحوها، درجة التعلم والمهارات والتدريب، الظروف والخدمات الصحية، وتوفير المأوى، وغيرها(٤). كما أنه قد فتح الباب أمام إضافات قادمة جديدة، أخذت تنظر للبعد الاقتصادي ضمن بوتقة الإنجاز الحضاري

ولعل (دودلي سيزر) قد عبر عن هذا،
بغاية في الدقة، بقوله: إن التنمية الاقتصادية
تدور حول محاور، تعبّر عنها بالأسئلة الآتية:
ما الذي حدث للفقر؟
ما الذي حدث للبطالة؟

ما الذي حدث لعدم المساواة؟
وكيف يمكن حل هذه المشكلات؟
فإذا أخفقت دولة ما في حل مشكلة، أو
اثنتان، من هذه المشاكل، وبخاصة إذا أخفقت
في حل ثلاث مشاكل معاً، فإنه سوف لن تصل
إلى تحقيق التنمية (١٠).

تعدّ مدّة الثمانينيات والتسعينيات، من
القرن الماضي، توجهاً يحمل بصمات أكثر
إنسانية للتنمية، تجسّد عبر معاناة الفقر
والحرمان والجوع، وانخفاض مؤشرات التنمية
البشرية. ولقد جسّد هذه (أدجر اوينز)، في
كتابه الصادر عام ١٩٨٧، بقوله: "لقد عامل
الاقتصاديون قضية التنمية، كما لو كانت لا
تعدو كونها أكثر من تدريبات وممارسات
وتطبيقات في علم الاقتصاد التطبيقي، منفصلة
عن الأفكار السياسية، ويستبعد دور الأفراد في
المجتمع. إن وقتاً طويلاً قد مرّ، حتى تمكّننا فيه
من محاولة جمع نظرية اقتصادية في الاقتصاد
السياسي، يمكن من خلالها شرح كيف تستطيع
المجتمعات أن تكون أكثر إنتاجاً، وأيضاً: أعلى
جودة. وذلك من خلال تنمية البشر، بدلاً من
تنمية الأشياء، أو تحقيق التنمية البشرية" (١١).

• تطوير البعد الفكري نحو الحياة.
• التوافق العقلاني بين السياسات والوسائل،
والذي من شأنه إزالة الظروف السائدة في
النظام الاجتماعي، والتي ساهمت في خلق حالة
التخلف الزمن.

ويبدو أنّ هذه النظرة الشاملة للتنمية
الاقتصادية، قد تأثرت بالرؤى الاشتراكية، التي
تبنى القول بأن التنمية الاقتصادية هي عملية
نقل الاقتصاد القومي من حالة التخلف إلى
حالة التقدم، أو بمعنى أدق: هي الانتقال من
الوضع الاجتماعي المتخلف إلى الوضع
الاجتماعي المتقدم. وهذا الانتقال يقتضي تغييراً
جذرياً وجوهرياً في أساليب الإنتاج، المستخدمة
"قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، التي تتلاءم مع
مرحلة تطور قوى الإنتاج"، وفي البنيان الثقافي
المتلائم مع هذه الأساليب الإنتاجية (٨). ورغم
تأكيد (ماركس) على الدور الرئيس للأساس
المادي، في تحريك البناء الفوقي، إلا أن
(شومبيتر) قد أحدث قفزة نوعية، بتأكيد على
دور العوامل الاقتصادية والاجتماعية في النمو
الاقتصادي (٩).

لقد تميزت مدة السبعينات بإعادة تعريف
التنمية الاقتصادية، في صورة:
- تقليل، أو ازادة الفرص، وعدم المساواة.
- تقليل البطالة.
- رفع شعار (التوزيع من النمو).

والمسكن، والصحة، والحماية. إلى هذا الحد نستطيع أن نقول إن التنمية الاقتصادية شرط ضروري لتحسين جودة الحياة. إن تحقيق متوسط دخل الفرد المرتفع، وإزالة الفقر المطلق، وفرص عمالة أكبر، وتقليل عدم المساواة في الدخول، كل ذلك يشكل الشرط الضروري، ولكنه ليس الكافي، من أجل تحقيق التنمية.

(ب) تقدير الذات، واحترامها: ويعدّ الإباء، وعزّة النفس، المكون الثاني الشامل لمكونات الحياة الجيدة، ويعني: الإحساس بالأهليّة، واحترام الذات، والشعور بأنك لست أداة يستخدمها الآخرون من أجل مصالحهم الخاصة.

(ج) الحرية من الاستعباد: أن يكون لك الحق في الاختيار. وهي فكرة الحرية البشرية. ويجب أن نفهم الحرية في إطار التحرر من الجهل، والنظرة الدونية من قبل الشعوب الأخرى، ومن البؤس، والمعتقدات الخاطئة. لذلك تستلزم الحرية نطاقاً موسعاً من الاختيارات للمجتمعات. ولقد ركّز العالم الاقتصادي (آرثر لويس)، على العلاقة بين النمو الاقتصادي، والحرية من الاستعباد، عندما استنتج أن ميزة الاقتصاد ليست في السعادة الحادثة بسبب زيادة الثروة، ولكنها الزيادة في نطاق الاختيار البشري. إذ تمكّن الثروة الناس في أن يحصلوا على فرصة

إن ما تمّ التوصل إليه من قبل (آدجر اوينز)، لا يعدو ما أشار إليه المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، حينما حدّد أحد أسباب تخلف العالم الإسلامي بمقولته الشهيرة "الاهتمام بعالم الأشياء، لا بعالم الأفكار" (١٢). إذ يقول: "ونستطيع أن نفهم هذا الميل في ضوء السيكولوجية الصيبانية، فالطفل لا يرى في العالم أفكاراً، ولكنه يرى أشياء. فكومة من الحلوى، أتمن لديه بكثير من كومة من الجوهر" (١٣).

لقد أفرج الأفق التنموي الحديث، الذي تجسّد مداه في القرن الواحد والعشرين، تأكيداً على قيم جوهرية ثلاث، في التنمية، تسمو بالجوانب الاجتماعية والإنسانية، بتأكيداها على محاور ثلاث (١٤):

(أ) القدرة على العيش: بمعنى القدرة على سد الحاجات الأولية. فجميع البشر لديهم احتياجات أساسية معينة، والتي بدونها تصبح الحياة مستحيلة. تتضمن هذه الحاجات الأساسية المدعمة للحياة: الغذاء، المسكن، الصحة، والحماية. وفي حالة غياب أحد هذه الأشياء، أو وجود عجز في العرض، فإن هناك حالة تسمّى بـ(التخلف الحضاري المطلق). لذا، فإن وظيفة أيّ نشاط اقتصادي، أن يمدّ الناس - على قدر المستطاع - بالوسائل التي يستطيعون بها التغلب على عدم المساعدة، والمأساة الناجمة عن نقص الطعام، والغذاء،

بما في ذلك فرص السجل السياسي، والمعارضة، والنقد، وحرية المشاركة السياسية.

(ب) التسهيلات الاقتصادية:

وتهتم بالفرص المتاحة للأفراد، لاستغلال الموارد الاقتصادية لأغراض الاستهلاك والإنتاج والتبادل، وهي تعتمد على ما يمتلكه الفرد من موارد، أو ما تتاح له، وعلى ظروف التبادل، مثل الأسعار النسبية، وآلية الأسواق، بما يساهم في زيادة ثروات الأمم. وينطوي ذلك على حضور دور الدولة في توفير التسهيلات الاقتصادية لهذا الغرض.

(ج) الفرص الاجتماعية:

وهي تتعلق بالترتيبات الاجتماعية، في المجالات التي تؤثر في الحريات الحقيقية المتاحة للأفراد ليعيشوا حياة طيبة، مثل: الترتيبات المتعلقة بالتعليم والصحة، وتفعيل مشاركة الناس بهذا الاتجاه، مثل: برامج مكافحة الأمية.

(د) ضمانات الشفافية:

يركز هذا الجانب على تعزيز الثقة في التعامل بين الناس، في إطار المجتمع، وهي حرية التعامل بين الأفراد، والمكونات، على أساس ضمان الإفصاح والسلاسة، وهي تحد من الممارسات الفاسدة، وعدم المسؤوليات المالية.

(هـ) الأمان الوقائي (الحماي):

ويعني بتوفير شبكات الحماية والرعاية الاجتماعية، للحيلولة دون وقوع الشرائح

الحصول على أوقات للراحة أكبر، وخدمات حياة أفضل، حيث التأمل والتفكير الروحي.

وفي السياق نفسه، تتضمن الحرية من الاستعباد، مكونات مختلفة من الحرية السياسية، تشتمل على الأمن الشخصي، وسيادة القانون، وحرية التعبير، والمشاركة السياسية، والمساواة في الفرص.

وبحسب رأي العالم الاقتصادي (أمارتيا صن Amaratya Sen) "فإن عمليات توسيع حريات البشر، هي الغاية الأساسية للتنمية، والوسيلة الرئيسة لتحقيق التنمية المرغوبة" (١٥).

وتعدّ عملية توسيع حريات البشر، من أكثر المفاهيم المعاصرة للتنمية، التي تعارف عليها المفكرون الاقتصاديون. وعلى الرغم من تعدد مكونات الحرية، لكنه جرى التركيز على خمسة أساسية، وهي (١٦):

(أ) الحريات الأساسية:

وتشمل الحقوق المدنية، والفرص المتاحة للناس ليقرروا من سيحكمهم، وعلى أية مبادئ، وليراقبوا، وينتقدوا، ويمارسوا السلطات، ويعبروا عن آرائهم من خلال صحافة حرة، وليقرروا الانضمام إلى مختلف الأحزاب السياسية.

وتمثل هذه الحريات: الاستحقاقات المتوفرة في النظم الديمقراطية، بمعناها الواسع،

فعرّف التنمية البشرية بكونها "تنمية الناس، من أجل الناس، بواسطة الناس. وتنمية الناس معناها: الاستثمار في قدرات البشر، سواء في التعليم والصحة والمهارات، حتى يمكنهم العمل على نحو منتج ومبدع. والتنمية من أجل الناس، معناها: كفالة توزيع ثمار النمو الاقتصادي، الذي يحققونه، توزيعاً عادلاً، واسع النطاق. والتنمية بواسطة الناس، أي: إعطاء كل فرد فرصة المشاركة فيها" (١٨).

أما تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥، فقد توجّه إلى بيان وضع المرأة بالنسبة إلى الرجل، موضّحاً أن النساء في العالم يشكلن نصف المجتمع الإنساني، من حيث الكم، لكنهن ما زلن لا يحصلن إلا على نصيب أقل مما يحصل عليها الرجل من الدخل وفرص العمل والخدمات وغيرها. وإن ذلك لم يقتصر على البلدان النامية، بل شمل الدول المتقدمة (١٩).

أما تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٨، فقد بحث الاستهلاك، والدور الذي يمكن أن يؤديه في التنمية البشرية. فعلى الرغم من الارتفاع الكبير في الاستهلاك، الذي بلغ (٢٤) تريليون دولار في ذلك العام، فإن هناك أكثر من مليار شخص، لا تتوفر لهم فرصة الاستهلاك التي تلبّي حاجاتهم الأساسية (٢٠).

الضعيفة في المجتمع، في شراك الفقر المدقع، وفي بعض الأحيان: الجوع والموت. وهي ترتيبات مؤسسية ثابتة ومستمرة، مثل: (الإعانات، وبرامج الضمان الاجتماعي، والمنح الداخلية، برامج العون الطارئة).

وعلى أساس هذه المحاور، طوّر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مقياساً مركباً لتلك المؤشرات، دعي به (دليل التنمية البشرية)، أو (مؤشر التنمية البشرية)، لقياس الإنجاز التنموي، الذي يتحقق في كل دولة. ولقد جرت عملية بلورة هذا المفهوم في تقارير التنمية البشرية، التي تلت تقرير عام ١٩٩٠. ففي عام ١٩٩٢ جرى تأكيد ضرورة تمييز مفهوم التنمية البشرية عن غيره من المفاهيم، كما تمّ تأكيد الطابع الأممي، إذ ذكر التقرير "إن التنمية البشرية فكرة أوسع وأشمل، فهي تغطي جميع اختيارات الإنسان، في كل المجتمعات، وفي جميع مراحل التنمية. فهي تهتم بالنمو الاقتصادي، قدر اهتمامها بالتوزيع. كما تهتم بالحاجات الرئيسة، بقدر ما تهتم بالشريحة الكاملة للتطلعات الإنسانية. وتهتم بمآزق الناس في الشمال، بقدر ما تهتم بجرمانهم في الجنوب. وهي تنسج التنمية حول الناس، وليس العكس" (١٧).

وقد وسّع تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٣، مفهوم المشاركة الجماهيرية، سواء الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو السياسية،

التنمية المستدامة لا بد لها من التركيز على (طبيعة النمو الاقتصادي، ونوعيته)، بما في ذلك العناية بالبيئة، وبالاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية، وانعكاس كل ذلك - بطريقة ملموسة- على تمكين الناس ليعيشوا الحياة التي يرغبون فيها.

وقد أوضح برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، أن التنمية البشرية، والتنمية المستدامة، هما قضيتان متلازمتان. فالتنمية البشرية تعني إفراح المجال أمام الإنسان ليعيش حياة مديدة، يتمتع فيها بالصحة، ويحصل على التعليم، ويحقق ذاته. أما التنمية المستدامة، فتعني الحرص على إفراح المجال ذاته أمام أجيال الغد. فالتنمية البشرية لا تكون تنمية بشرية ما لم تكن مستدامة. ويعني تلازم المفهومين إمكانية الاستمرار باستخدام التنمية البشرية لقياس الإنجاز التنموي المستدام (٢٤) □

الهوامش:

(١) النجفي، د. سالم توفيق والقريشي، د. محمد صالح تركي، مقدمة في اقتصاد التنمية، دار الكتب، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨، ص ٢٨-٢٩.

(٢) ماير، جيرالد، وبولدوين، روبرت، التنمية الاقتصادية (نظرياتها، تاريخها، سياستها)، ترجمة د. يوسف عبدالله صائح، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.

أما تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠، فقد هدف إلى تأمين ما أطلق عليه بالحريات السبع: التحرر من التمييز حسب الجنس أو العنصر أو الأصل العرقي القومي أو الدين، والتحرر من الخوف من التهديدات المتعلقة بالأمن الشخصي والتعذيب والاعتقال التعسفي، وغيرها من أعمال العنف، وحرية الفكر والكلام والاشتراف في صنع القرار، والتحرر من الفاقة، وحرية تنمية إمكانات البشر وتحقيقها، والتحرر من الظلم، ومن انتهاكات سيادة القانون، وحرية مزاولة عمل كريم دون استغلال (٢١).

ولقد تلازم مع هذا الاهتمام بالتنمية البشرية، اهتمام لا يقل عنه شأنًا بما أطلق عليه: التنمية المستدامة. ولقد اعتمدت اللجنة الدولية حول البيئة والتنمية، عام ١٩٨٧، في تقريرها السنوي، التعريف الآتي للتنمية المستدامة: "إنها تلك التنمية التي تلبى احتياجات الأجيال الحالية، من دون إعاقة مقدر الأجيال المستقبلية، في مقابلة احتياجاتها" (٢٢).

ويعدّل الاقتصادي الباكستاني (محبوب الحق) هذا التعريف، ليؤكد أن الاستدامة تعني "استدامة الحياة الإنسانية، وإن البيئة الطبيعية ما هي إلا وسيلة لمثل هذه الاستدامة، وليس غاية" (٢٣). وعلى أساس هذا التعريف البديل لمفهوم الاستدامة، يلاحظ (محبوب الحق) أن

- (٤) تودارو، ميشيل ن، التنمية الاقتصادية، ترجمة د. محمود حسن حسني، د. محمود حامد عبدالرزاق، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦، ص ٥١.
- (٥) النجار، د. يحيى، التنمية بين المفاهيم المغلوطة والصحيحة، منشورات وزارة الإعلام، جمهورية العراق، ١٩٧٧، ص ٢٧.
- (٦) Myrdal, G, Asian Drama, NewYork, 1968, P.869.
- (٧) Black, G.E, The Dynamics of Modernizationm NewYork, 1966, PP 55-60.
- (٨) محي الدين، د. عمرو، التخلف والتنمية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٥٨.
- (٩) قطفان، محمد فاضل عزيز، التنمية الاقتصادية، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٥٨.
- (١٠) تودارو، ميشيل ب، مصدر سابق، ص ٥٢.
- (١١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٢.
- (١٢) الإدريسي، د. أمين محمد سعيد، الفكر الاقتصادي للمفكر الجزائري مالك بن نبي، مجلة الإيمان، عدد ٤٤، ٢٠١١، ص ١٥١.
- (١٣) بن نبي، مالك، فكرة كومونولث إسلامي، مقدمة الكتاب للأستاذ محمد عبدالله السمان، ترجمة الطيب الشريف، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم (١٦)، المكتب الفني للنشر، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣.
- (١٤) تودارو، ميشيل ب، مصدر سابق، ص ٥٥-٥٧.
- (١٥) جواد، د. صائب إبراهيم، النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة بين النظرية والتطبيق، مجلة ئابورى سياسى، عدد ٣٩، ٢٠١٤، ص ١١٧.
- (١٦) المصدر السابق نفسه، ص ١١٧.
- (١٧) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢.
- (١٨) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣.
- (١٩) جمعية الاقتصاديين العراقيين، تقرير التنمية البشرية في العراق عام ١٩٩٥، بغداد، ص ٣.
- (٢٠) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٨، البحرين، ١٩٩٨، ص ١.
- (٢١) العاني، د. أسامة عبد المجيد، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، سلسلة عدد (٧٠) مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، بدون تاريخ، ص ١٧.
- (٢٢) جواد، د. صائب إبراهيم، مصدر سابق، ص ١١٨.
- (٢٣) المصدر السابق نفسه، ص ١١٨.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ١١٩.

تأملات في آية الانسلاخ

(العلماء المنسلخون)

صالح شيخو الهسنياني

وهذا النموذج ضربه الله سبحانه، لينبهنا إلى تكراره في كل مكان وزمان على وجه الأرض، كلما وجد المكذبون بآيات الله تعالى، وكلمما وجد المنتفعون من وجود الحاكم الطاغية، ذو السلطان المستبد، وقارونات الاقتصاد والمال، حيث حولهما يتوالد الفكر العفن، والدستور الظالم، على أيدي علماء انسلخوا من دينهم وإيمانهم، إرضاءً لهوى النفس والسلطان والشيطان، وخوفاً من أن تُسلب منهم الحياة، أو مناصب الدنيا الفانية.

قال تعالى: ﴿وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ

ك إذا كان لا يمكن سلخ الحيوان وهو حي، فكيف لعالم أو داعية ينسلخ من دينه ويبيعه بعرض من الدنيا، إرضاءً لشهواته، وإرضاءً لرغبات السلطان والشيطان وأعوانه، لاهتاً في السراء والضراء، والسر والعلن، و وراء متاع الدنيا ومناصبها، ضارباً بالعلم والمعرفة، والثواب والمبادئ عرض الحائط؟! أهو سوء الفهم؟ أم هو الفهم بعينه؟ أم هو الالتفاف حول النصوص؟ أم هو نار الحقد والكراهية للآخرين؟ أم هو الخوف على الحياة؟ أم هو التهرب من الحقيقة؟ أم.. ماذا...؟!

نموذج ذكره الله تعالى في قرآنه الكريم، عن عالم آتاه الله تعالى الآيات فانسلخ منها، حيث انقلب إلى الضد تماماً، بولوجه في الكفر والنفاق، حتى أصبح رأساً يتبعه الشيطان، ليزيده غوايةً وضلالاً.

لَهَثٌ: اللهث واللهاث: حر العطش في الجوف. واللهشان: العطش، العطشان، لهث الكلب، دلح لسانه من شدة العطش والحر والتعب، وكذلك الطائر إذا أخرج لسانه من حر أو عطش، وكذلك الرجل إذا أعيأ (٦).

الغَاوِينُ: الغاوي والغوي هو من يضل عن الطريق، وهو الممعن في الضلال. ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية، يضل أو يتوه في الصحراء. وهو الذي يُسمى (الغاوي)، وما دام من الغاوين عن منهج الله، فالفساد ينشأ منه، لأنه فسد في نفسه، ويفسد غيره (٧).

ما هي الآيات المنسلخة منها؟

قال تعالى: ﴿وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾.

يقول الرازي: " أما قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، ففيه قولان:

القول الأول: [آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا]، يعني: علمناه حجج التوحيد، وفهمناه أدلته، حتى صار عالماً بها، فانسلخ منها، أي: خرج من محبة الله إلى معصيته، ومن رحمة الله إلى سخطه. ومعنى انسلخ: خرج منها. يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية: انسلخ منه.

والقول الثاني: [آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا]، أي: بينها فلم يقبل، وعري منها. وسواء قولك: انسلخ، وعري، وتباعد، وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة، وأقام على الكفر (٨).

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦).

قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس: ٣٧).

انْسَلَخُ: نزع جلد الحيوان، يقال: سَلَخْتُهُ فَأَنْسَلَخُ. وعنه استعير: سَلَخْتُ دَرْعَهُ: نزعته، وسَلَخَ الشَّهْرَ، وانْسَلَخَ. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ (التوبة: ٥)، وقال تعالى: ﴿نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ (يس: ٣٧)، أي: نزع (١).

من المجاز: (سلخ الله النهار من الليل: استله، فانسلخ): خرج منه خروجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه، لأن النهار مكور على الليل، فإذا زال ضوؤه، بقي الليل غاسقاً، قد غشي الناس (٢).

وشاة سليخ: كشط عنها جلدها... والسليخة: قضيب القوس، إذا جردت من نحتها، لأنها استخرجت من سلخها، وكل شيء يفلق عن قشر، فقد انسلخ. ومسلاخ الحية، وسلختها: جلدها التي تنسلخ عنها، وقد سلخت الحية تسلخ سلخاً، وكذلك كل دابة تنسري من جلدها (٣). [فَأَنْسَلَخَ] عبارة عن البراءة منها، والانفصال والبعد، كالسلخ من الثياب (٤).

والانسلاخ: الخروج، يقال: انسلخت الحية من جلدها، أي: خرجت منه. وقيل: هذا من المقلوب، أي: انسلخت الآيات منه (٥).

كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه" لأن كلا منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص (١٠).

إنه مشاهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات..

إنسان يؤتبه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ، كأنما الآيات أديم له، متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله، تلبس الجلد بالكيان؟.. ها هو ذا ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقى، والدرع الحامي (١١).

المهم أن إنساناً آتاه الله آياته، ثم انسلك من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها، صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه [فانسلك مِنْهَا]، واتبع هواه، ومال إلى الشيطان.

وكلمة [فَأَنْسَلَخَ] دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية، لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية، لينسلخ الإنسان منها، لأن الأصل في السلخ إزاحة جلد الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات، فانسلك منها. وهذا يعني أن الآيات

واعلم أن حاصل الفرق بين القولين: هو أن هذا الرجل في القول الأول، كان عالماً بدين الله، وتوحيده، ثم خرج منه. وعلى القول الثاني، لما آتاه الله الدلائل والبيانات، امتنع من قبولها. والقول الأول أولى، لأن قوله: [فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا]، يدل على أنه كان فيها، ثم خرج منها. وأيضاً فقد ثبت بالأخبار، أن هذه الآية إنما نزلت في إنسان كان عالماً بدين الله تعالى، ثم خرج منه إلى الكفر والضلال (٩).

الانسلاخ يحتاج إلى جبروت معصية

قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذابين بآيات الله، المنزلة على رسوله (ﷺ)، على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية. وهو مثل من آتاه الله تعالى آياته، فكان عالماً بها، حافظاً لقواعدها وأحكامها، قادراً على بيانها، والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة، فسلبها" لأن العلم الذي لا يعمل به، لا يلبث أن يزول، فأشبهه الحية التي تنسلخ من جلدها، وتخرج منه، وتتركه على الأرض (ويسمى هذا الجلد المسلاخ)، أو كان في التباين بين علمه وعمله، كالمسلخ من العلم، التارك له، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه، والثعبان يتجرد من جلده، حتى لا تبقى له به صلة. فحاصل معنى المثل: أن المكذابين بآيات الله تعالى، المنزلة على رسوله محمد (ﷺ)، على إيضاها بالحجج والدلائل،

من الهدى إلى الغواية

وقوله: "فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ" ﴿١٥﴾، أي: أطاع الشيطان، فكان من الظالمين. قال أهل المعاني: المقصود منه، بيان أن من أوتي الهدى، فانسلخ منه إلى الضلال والهوى والعمى، ومال إلى الدنيا، حتى تلاعب به الشيطان، كان منتهاه إلى البوار والردى، وخاب في الآخرة والأولى (١٥).

فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين أي: فترتب على انسلاخه منها، باختياره، أن لحقه الشيطان، فأدركه، وتمكن من الوسوسة له، إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة، ما يحول دون قبول وسوسته، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين، أي الفاسدين المفسدين (١٦).

تزكية الشيطان

وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج، يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجري وراءه، مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب، الحامل للمنهج. ويزكي الشيطان، في نفس هذا الإنسان، مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصي تأتي: مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان. وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجروء عليك، إلا إن أوضحت للشيطان، بسلوكك، أن له أملاً فيك. لكن إن اهتديت، وأصلحت

تحيط بالإنسان، كما يحيط الجلد بالجسم، ليحفظ الكيان العام للإنسان، لأن هذا الكيان العام فيه شرابين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمي الخارج عن منهج الله: (فاسقاً)، مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة، يتبخر منها بعض من الماء، فتسكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها، وتظهر الرطبة من القشرة. ولذلك سمي الخارج عن المنهج (فاسقاً)، من فسوق الرطبة عن قشرتها. والله عزَّ وجلَّ يقول هنا: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة، جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات (١٢).

عجباً، شيطان يتبع غاويًا!!!

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. [فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ] أي أدركه. يقال: أتبع القوم: إذا لحقتهم، وتبعتهم: سرت في إثرهم (١٣).

يقول (الرازي): "أما قوله: [فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ]، ففيه وجوه:

الأول: أتبعه الشيطان كفار الإنس وغواتهم، أي: الشيطان جعل كفار الإنس أتباعاً له.
والثاني: [فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ] أي: أدركه. يقال: أتبع القوم. أي: لحقتهم. قال أبو عبيدة: ويقال: أتبع القوم" (١٤).

لفعلنا، بأن نخلق له الهداية خلقاً، ونحمله عليها، طوعاً أو كرهاً. فإن ذلك لا يعجزنا، وإنما هو مخالف لسنننا (١٨).

وقال (ابن عباس)، وجماعة معه: معنى [لَرَفَعْنَا]، أي: لشرفنا ذكره، ورفعنا منزلته لدينا، بهذه الآيات التي آتيناها، ولكنه لازم وتقاعس وثبت. والمخلد: الذي يثبت شبابه، فلا يغشاه الشيب (١٩).

يقول الشيخ (الشعراوي): "ويقول الحق بعد ذلك: [وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا وَلَكِنَّهُ ...]، وهنا أمران اثنان: الرفعة: وهو العلو والتسامي. ويأتي بعدها الأمر الثاني: وهو الإخلاق إلى الأرض، أي إلى التسفل. والفعالان منسوبان لفاعلين مختلفين.

[وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا]، والفعل (رفع)، هنا، مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد في الأرض. وجاء الأمر كذلك، لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وإن كان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج. وحين يقول الحق تبارك وتعالى: [وَلَوْ شِئْنَا] أي: إنها مشيئتنا. فلو أردنا أن نرفعه، كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار، والحق يريد أن يُبقي للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب، فأهلاً به، وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال، فلسوف يلقى العذاب الحق. وهنا يقول الحق: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا﴾، لماذا؟..

من حالك، فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة، ويحاول أن يكرهه فيها. والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمار، بل يقعد عند الصراط المستقيم، ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير، أما الآخرون، فنفوسهم جاهزة له. إذاً، فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات، فهو يلاحقه، مخافة أن تستهويه الآيات ثانية. ولذلك، لا بد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية: هل هو من النفس، أم من نزغ الشيطان؟ فإن جاءت المعصية، وحدثتك نفسك بأن تفعلها، ثم عزت عليك تلك المعصية، لأي ظرف طارئ، ثم ألححت عليها ذاتها، مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك، ثم فكرت في معصية ثانية، فهذا من نزغ الشيطان، لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها، وتقف عندها. فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية، وتركتها، ثم فكرت في معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان (١٧).

من الرفعة والسمو، إلى شهوات الدنيا

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

[وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا]، أي: ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات، إلى درجات الكمال والعرقان، التي تقرن فيها العلوم بالأعمال،

من الملاذ. قاله السدي، وغيره. ويحتمل أن يريد بها العبارة عن الأسفل والأخس، كما يقال: فلان في الحضيض. ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أن الأرض، وما ارتكز فيها، هي الدنيا، وكل ما عليها فان، من أخلد إليه فقد حرم حظ الآخرة الباقية" (٢٤).

اتباع الهوى

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ هَوَاؤَهُ﴾

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه. وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى الطعام ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهي. فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي. فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار. ولما كان الغالب من موافق الهوى، أنه لا يقف منه على حد المنتفع، أطلق ذم الهوى والشهوات، لعموم غلبة الضرر، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى في النفس (٢٥).

يقول السيد محمد نوح: "يطلق الهوى على عدة معان، نذكر منها:

- ميل النفس إلى ما تشتهي.
- إرادة النفس ما تحب.
- عشق الشيء، وتمكنه من القلب.

لأن مشيئة الله - كما يقول الشيخ الشعراوي - "مشيئة مطلقة، يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه، مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تديلاً.

وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً، يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً، يعاقبه. ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته، ولا معقب لحكمه.

وبمقتضى مشيئة الله، فهو يعذب المذنب، بعدله، ويثيب الطائع، بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة، فهو عزيز، وحكيم، في كل فعل: ﴿وَكُلُوا شَيْئاً لَرَفَعْنَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاؤَهُ﴾. و[أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ]، أي: أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان، وبين له طريق الخير، ليسلكه، فيصعد إلى العلو" (٢٠).

الركون إلى الدنيا

قوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾، أي ركن إلى الدنيا وسكن (٢١).

وقال الزجاج: معناه: ولكنه سكن إلى الدنيا... سكن إلى لذات الأرض (٢٢).

وقال ابن الجوزي: "وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه ركن إلى أهل الدنيا. والثاني: أنه ركن إلى شهوات الدنيا" (٢٣).

ويقول ابن عطية: "وقوله: [إِلَى الْأَرْضِ] يحتمل أن يرد إلى شهواتها، ولذاتها، وما فيها

أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبع الهوى، انسلخ من الدين، وصار في درجة الكلب. وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى، وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم (٢٩).

نقطة الارتكاز: النهي عن اتباع الهوى:

يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ (سورة النساء: ١٣٥).

قال ابن القيم: "وقد قيل: الهوى كمين لا يؤمن. قال الشعبي: وسمي هوى، لأنه يهوي بصاحبه. ومطلقه يدعو إلى اللذة الحاضرة، من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً. فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يعمي صاحبه من ملاحظتها" (٣٠).
ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).

قال الزمخشري: "هوى النفس في قضائك وغيره، مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا" (٣١). وقال الخازن: "أي: لا تمل مع ما تشتهي، إذا خالف أمر الله تعالى" (٣٢).
قال سيد قطب: "ونهي النفس عن الهوى، هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز، وكل

وحقيقة الحال أن هذه المعاني جميعاً متقاربة، وإن اختلفت العبارة أو اللفظ. إذ المعنى الأول، والثاني: بصوران الهوى، في بدايته، على أنه مجرد ميل وإرادة قلبية، دون تمكن واستقرار. أما المعنى الثالث: فيصوره، في وسطه، على أنه حب أو غلبة قلبية.
المراد بالهوى لغة، فإننا نقول: أن اتباع الهوى في اللغة هو: السير وراء ما تهوى النفس، وما تشتهي، بل ما تحب.

اتباع الهوى اصطلاحاً: أما المراد باتباع الهوى في الاصطلاح الشرعي، والدعوة، فهو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي، أو النزول على حكم العاطفة، من غير تحكيم العقل، أو الرجوع إلى شرع، أو تقدير لعاقبة" (٢٦).

وقال حبنكة الميداني: "والهوى شعور يميل النفس إلى ما تحب من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، أو عواطف وانفعالات، وقد يكون ما تهواه شراً لها، أو أذى أو ضراً" (٢٧).

وقال آخر: ميل النفس إلى الشهوة، فهي تهوي بصاحبها إلى الهاوية، وهو السقوط من عل. كأن من يتبع هواه يسقط في الهاوية، وهي جهنم. فاتباع الهوى منتهى الضلال (٢٨).

قوله: [واتبع هواه] معناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتباع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى، وهذه الآية من

المعصية. وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى. فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوى، بعد العلم، هو آفة النفس، التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العفيفة. وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى. ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس، العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تطارد في مكانها ومحاباتها!

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى. فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته. ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها. وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيّب. وكتب له بهذا الجهاد الشاق، الجنة، مثابة ومأوى: [فإن الجنة هي المأوى].. ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد، وقيّمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته، وجعل له الجنة جزاء ومأوى، حين ينتصر ويرتفع ويرقى.

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس، والانطلاق من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني. وهناك حرية حيوانية، هي هزيمة الإنسان أمام هواه، وعبوديته لشهوته، وانفلات الزمام من إرادته. وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية، مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفاً من الحرية" (٣٣).

الهوى أم المعاصي

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

قال سيد قطب: "إن الحق في هذا القرآن كبين، وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه، إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده. وإنهما لطريقان لا ثالث لهما: إما إخلاص للحق، وخلوص من الهوى، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم. وإما ممارسة في الحق، واتباع للهوى، فهو التكذيب والشقاق. ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في

إن الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع. وليس إنساناً بتزك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أن هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها

إن الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع. وليس إنساناً بتزك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أن هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها

إن الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع. وليس إنساناً بتزك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أن هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها

وكذلك المعاصي، إنّما تقع من تقديم الهوى على محبة الله، ومحبة ما يُحبه" (٣٥).

يقول الدكتور طه جابر: "أنواع الهوى متعددة، وموارده متشعبة، وإن كانت في مجموعها ترجع إلى (هوى النفس، وحب الذات). فهذا الهوى منبت كثير من الأخطاء، وحشد من الانحرافات. ولا يقع إنسان في شباكه، حتى يزين له كل ما من شأنه الانحراف عن الحق، والاسترسال في سبيل الضلال، حتى يغدو الحق باطلاً، والباطل حقاً، والعياذ بالله" (٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُ الْكَلْبِ﴾.

الكلب من الثدييات المشيمية، آكلة اللحم، التي تتبع رتبة خاصة من رتب طائفة الثدييات، وتضم ثدييات من تعرف باسم رتبة آكل اللحوم، مثل: الكلب، وابن آوى، والثعلب، والذئب، والفقمة، أو عجل البحر، والدب، والأسد، والنمر، والقط. وكلها تأكل اللحوم والكلاب، في الطبيعة، تميل إلى العيش في جماعات منظمة، وإلى الخروج إلى الصيد في جماعات منظمة، كذلك.

يدق قلب الكلب (٧٠-١٢٠) دقة في الدقيقة، وتبلغ درجة حرارة جسم الكلب الطبيعية (٣٨,٦) درجة مئوية. لا تُبرّد الكلاب أجسامها بالعرق، وإنما يخرج الكلب لسانه، ويلهث، عند الراحة. تتراوح سرعة تنفس الكلب بين (١٠ و٣٠) هثة في الدقيقة،

الحجة، أو نقص في الدليل. كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .. وهكذا جزماً وقطعاً. كلمة من الله لا راد لها، ولا معقب عليها.. إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين، مغرضون، غير معذورين. متجنّون، لا حجة لهم، ولا معذرة، متبعون للهوى، معرضون عن الحق الواضح: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيًا يُغَيِّرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾، وهم في هذا ظالمون باغون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن، ولم يحيطوا علماً بهذا الدين. فما هو إلا أن يصل إليهم، ويعرض عليهم، حتى تقوم الحجة، وينقطع الجدل، وتسقط المعذرة. فهو بذاته واضح، لا يجيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه، ولا يكذب به إلا مُتَجَنِّ يظلم نفسه، ويظلم الحق البين، ولا يستحق هدى الله" (٣٤).

وقال ابن رجب الحنبلي: "جميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله. وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى، في مواضع من كتابه. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيًا يُغَيِّرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾، وكذلك البدع، إنّما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يُسمى أهلها أهل الأهواء،

ولا تستطيع الكلاب الرؤية جيداً، مثل البشر. وعلى الرغم من أنها تستطيع تمييز الحركة، تمييزاً جيداً - الأمر الذي يساعدها على الصيد بمهارة - إلا أنها ترى الأشكال بدرجة أقل مما يراها البشر. ولا تستطيع الكلاب تمييز بعض الألوان أيضاً، فمثلاً ترى اللون الأخضر، والأصفر، والبرتقالي، والأحمر، كأنها درجة لونية واحدة (٣٧).

لماذا يلهث الكلب؟

إذا أخرج لسانه من الحر والعطش، أو من التعب والإعياء، أو الإجهاد والمريض، و(اللهثان)، بفتح الهاء: العطش. وبسكونها: العطشان. ويعرف (لهث) الكلب، و(لهائه)، بأنه الأنفاس السريعة، الضحلة، التي يأخذها الكلب، عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلى الخارج، وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كاف من الأوكسجين، وضبط كل من كمية الماء، ودرجة الحرارة في الجسم، وتهويته في حالات الحر الشديد. والسبب في ذلك، أن جسم الكلب لا يحمل غدداً عرقية، إلا في باطن أقدامه فقط. وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه. ولذلك، فإن الكلب يستعين بعملية (اللهث)، لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه، ولوجود الشعر الكثيف الذي يغطي أغلب الجسم، فيرفع من درجة حرارته، خاصة في غيبة الغدد

وبعد المجهود، يزداد معدلُ اللهث بسرعة تصل إلى أكثر من (٣٠٠) هشة في الدقيقة. ويؤدي بخار الماء من الفم، بسبب اللهث، إلى خفض درجة حرارة الجسم. وللكلاب غدد عرقية على وسادات الأقدام، ولكنها لا تقوم بخفض درجة حرارة جسم الكلب، إلا بصورة ضئيلة.

الحواس: حاسة الشم هي أكثر حواس الكلب قوة. فالكلاب تتعرف على الأشياء أساساً بوساطة الشم، أكثر مما يتعرف البشر عليها بالنظر. وتستطيع الكلاب تمييز بعض الروائح، التي تكون أضعف ملايين المرات من التي يتعرف عليها البشر. كما يستطيع الكلب، بشم مجموعة من الأشياء، استخراج تلك التي لمسها شخص بعينه. ويحفظ طرف أنف الكلب الرطوبية، بوساطة سائل مُفرَز من غدة داخل الأنف. وتساعد تلك الرطوبة الكلب على تمييز الروائح. كما يلحس الكلب أنفه، للمحافظة على رطوبته. بالإضافة إلى أن الشعرات الموجودة حول فم الكلب، يمكن أن تحدد اتجاه الريح، ويساعد الكلب على تحديد الجهة التي أتت منها الرائحة.

وللكلاب أيضاً حاسة سمع، أقوى كثيراً من تلك الموجودة عند البشر، إذ تستطيع سماع الأصوات التي لا يدرکہا سمع البشر. كما أنها تميز بين الأصوات المتداخلة.

وفراغاتها، إلى كل من البلعوم، والحنجرة، والمريء، والقصبه الهوائية، بتفرعاتها، ولكنه لا يكاد يصل إلى الرئتين، حتى لا يؤدي ذلك إلى زيادة فقد (ثاني أكسيد الكربون) من الرئتين، مما قد يتسبب في مرض يعرف باسم مرض القلاء.

ومن أحكام الخلق في بناء جسم الكلب، أن عملية اللهاث تتم بأقل قدر ممكن من حركة العضلات، وهي أكثر أجزاء جسم الكلب نمواً (ومن أبرزها عضلة اللسان)، وبحركتها ترتفع درجة حرارة الجسم. ولذلك جعل الله تعالى الجهاز التنفسي للكلب، جهازاً شديداً المرونة، يتنفخ بأقل جهد ممكن أثناء عملية الشهيق، ويعود إلى حجمه الطبيعي، دون أي تدخل عضلي، أثناء عملية الزفير، وذلك في مصاحبة عملية اللهاثان.

فعندما يبدأ الكلب في هذه العملية، تنتقل سرعة تنفسه، فجأة، من (٣٠ - ٤٠) نفساً بالدقيقة، إلى عشرة أضعاف ذلك، أي إلى (٣٠٠ - ٤٠٠) نفساً بالدقيقة.

فإذا عطش الكلب، أو ارتفعت درجة حرارة جسمه، أو حدث الأمران معاً، فإنه يبدأ في اللهاث بمعدلات سريعة، ثم يعود لتنفسه العادي، ثم يلهث سريعاً، ثم يعود إلى التنفس البطيء، حتى يحقق تبريد جسمه، وضبط درجة حرارته، ويعين على ذلك قدر الهواء الداخل إلى مقدمات الجهاز التنفسي، وما يحمل معه من

العرقية، التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحيّة الأرضية.

واللهث، هو زيادة في عدد مرات التنفس السريع، والقصير المدى، زيادة ملحوظة عن معدلات التنفس العادي، مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجسم (كاللسان، والفم)، ومن الجهاز التنفسي (بدءاً من المنخار، إلى فراغات كل من الأنف والفم، إلى كل من البلعوم، والحنجرة، والمريء)، لتيار مستمر من الهواء، يزيد من كمية الأوكسجين الداخل إلى الجهاز التنفسي، وفي نفس الوقت يقوم بتبخير جزء من الماء الموجود في الأنسجة، التي يمر بها، فيؤدي إلى تبريد الجسم، وخفض درجة حرارته. ويساعد على ذلك ما يقوم به الكلب أحياناً من لحس الأطراف، ولحس بقية ما يطول لسانه من جسمه، وتبليبه بلعابه، حتى يتبخر ذلك، ويساعد على خفض درجة حرارة جسمه.

ومن بديع صنع الخالق (سبحانه وتعالى)، أن لهاث الكلب يؤثر فقط على مقدمات الجهاز التنفسي، ولا يقتضي الانتفاخ الكامل للرئتين، وأسناخهما، لإتمام عملية التبادل الكامل بين أوكسجين الهواء الداخل، وثاني أكسيد الكربون بالرئتين. وذلك لأن أغلب الهواء الداخل بعملية اللهاث، لا تتجاوز حركته ما يسمى باسم الفراغ الميت من الجهاز التنفسي، الذي يمتد من كل من الأنف والفم،

- لأنك إذا حملت على الكلب، نبج، وولّى هارباً، وإن تركته، شدّ عليك، ونبح. فيتعب نفسه مقبلاً عليك، ومدبراً عنك. فيعتزّيه - عند ذلك - ما يعتزّيه عند العطش، من إخراج اللسان (٣٩).

- ضرب الله عزّ وجلّ: بالتارك لآياته، والعاذل عنها، أحسن مثل، في أحسن أحواله، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، إذا كان الكلب لهثاً. وذلك أن الكلب إذا كان يلهث، فهو لا يقدر لنفسه على ضرّ، وكأ نفع، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال: حملت عليه، أو تركته. فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً (٤٠).

- إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب، فشبّه به صورة، وهيئة. وقال الجمهور: إنما شبّه به في أنه كان ضالاً، قبل أن يؤتى الآيات، ثم أوتيتها، فكان أيضاً ضالاً، لم تنفعه. فهو كالكلب، في أنه لا يفارق اللهث، في حال حمل المشقة عليه، وتركه دون حمل عليه (٤١).

- وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال. كالكلب، إن طردته، فسعى، لهث، وإن تركته على حاله، لهث. كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً، دائم الذلّة، لاهثاً في الحالين (٤٢).

- قال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يلهث من إعياء، أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في

بخار الماء، الذي يتصاعد من الأنسجة التي يمر عليها، وهو خارج إلى الجو مع عملية الزفير، خاصة أن الممرات الأنفية، والفمّية، للكلب، مصمّمة بنظام يسمح بمرور كمية كبيرة من الهواء، مع كل نفس. كما يعين عليه المرونة الزائدة للجهاز التنفسي، الذي يمتدّ مع الشهيق، باستهلاك جزء يسير جداً من طاقة العضلات، ويرتدّ بذاته مع عملية الزفير، دون أدنى تدخل عضلي..

وقد قدر أنه لو لم يكن للجهاز التنفسي للكلب، هذا القدر من المرونة العالية، لكانت الحرارة الناتجة من عملية اللهث، أكبر بكثير من الحرارة المفقودة بتسخير جزء من ماء الأنسجة، المبطنّة لمقدمات جهازه التنفسي، بواسطة تيار الهواء المارّ بها، أثناء عملية الزفير، وذلك لأن الطاقة اللازمة لتحريك عضلات الجهاز التنفسي، عند غير الكلب من الثدييات آكلة اللحم، هي طاقة كبيرة، والحرارة الناتجة عنها، هي حرارة ذات قيم مرتفعة.

والكلب يلهث - عادة - عند ارتفاع درجة حرارة جسده، بسبب ارتفاع درجة حرارة البيئة التي يحيا فيها، أو بسبب العطش، أو بسببهما معاً، أو عند الإجهاد الشديد، أو الإعياء والمرض العضوي أو النفسي، أو عند الاستثارة والمفاجأة، أو عند الفرح والرضا، بصفة عامة (٣٨).

لماذا هذا التشبيه؟

لسانه، ويخرجه، لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا. فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب، الذي أخرج لسانه أبداً، من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمجرد الطبيعة الحسيسة.

والثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهشه البتة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة.

أما قوله تعالى: إن تحمل عليه يلهث، فالمعنى أن هذا الكلب إن شدّ عليه، وهيج، هث. وإن ترك أيضاً، هث. لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له. فكذلك هذا الحريص الضال، إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية، وطبيعة ذاتية، له (٤٤).

إذا كان لهثان الكلب طبيعة ذاتية له، فما بالك بلهثان عالم، "ذلك اللهات وراء أعراض هذه الحياة الدنيا، التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتاهم الله آياته، فينسلخون منها. ذلك اللهات القلق، الذي لا يطمئن أبداً. والذي لا يتركه صاحبه، سواء وعظته، أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً! والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل، في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل بيئة.. حتى إنه لتمرّ فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم، إلا وهذا مثله، فيما عدا الندرة النادرة، ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى

حال راحته، وحال كلاله. فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه، فهو ضال، كالكلب إن طردته وزجرته، فسعى، هث، أو تركته على حاله، رابضاً، هث (٤٣).

العالم واللهثان

من آتاه الله العلم والدين، فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهاً بأحسّ الحيوانات، وهو الكلب اللاهث. وفي تقرير هذا التمثيل وجوه:

الأول: أن كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء، أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري. فكان ذلك عادة منه، وطبيعة، وهو مواظب عليه، كعادته الأصلية، وطبيعته الحسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة. فكذلك من آتاه الله العلم والدين، أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الحسيس، والفعل القبيح، نجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الحسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة.

والثاني: أن الرجل العالم، إذا توسّل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه، ومناقبها. ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات، يدلع

من ثقله الشهوات، شيئاً. ولا يدفع الشيطان، بل ربما ذلّل له الطريق، وعبّدها! كذلك لا يقدم هذا الدين، دراسات في (النظام الإسلامي)، ولا في (الفقه)، أو (الاقتصاد)، ولا في (العلوم الكونية)، أو (النفسية)، ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية! إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة، دافقة، محيية، موقظة، رافعة، مستعلية، تدفع إلى الحركة، لتحقيق مدلولها العملي، فور استقرارها في القلب والعقل، وتحيي موات القلب، فينبض، ويتحرك، ويتطلع، وتوقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، فترجع إلى عهد الله الأول، وترفع الاهتمامات والغايات، فلا تثقلها جاذبية الطين، ولا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدمه منهجاً للنظر والتدبر، يتميز، ويتفرد، دون منهج البشر في النظر، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم، وأخطائهم، وانحرافهم، تحت لعب الأهواء، وثقله الأبدان، وإغواء الشيطان! ويقدمه ميزاناً للحق، تنضبط به عقول الناس، ومداركهم، وتقاس به، وتوزن، اتجاهاتهم، وحركاتهم، وتصوراتهم، فما قبله منها هذا الميزان، كان صحيحاً، لتمضي فيه، وما رفضه هذا الميزان، كان خاطئاً، يجب الإقلاع عنه.

ويقدمه منهجاً للحركة، يقود البشرية، خطوة خطوة، في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة، وفق خطاه هو، ووفق تقديراته.. وفي

الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان!.. فهو مثل لا ينقطع وروده، ووجوده، وما هو محصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان! وقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتلوه على قومه، الذين كانت تنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها، وقد أوتوها. ثم ليقى من بعده، ومن بعدهم، يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً، أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث، الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم، الذي لا يظلمه عدو لعدو. فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم، بهذه النهاية النكدية! ولقد رأينا من هؤلاء - والعياذ بالله - في زماننا هذا، من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه، أو كمن يعرض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم، يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يبني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يبني يلهث وراء هذا المطمع، لهاثاً لا ينقطع، حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!" (٤٥).

منهج متميز في صياغة النفوس

المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة نظرية، للدراسة.. "فهذا مجرد علم لا ينشئ في عالم الضمير، ولا في عالم الحياة شيئاً.. إنه علم بارد، لا يعصم من الهوى، ولا يرفع

المعاندين مع الرسل، لأن القصة أمر واقعي، والتقنين للمناهج أمر لفظي. فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع، لأن واقع الحياة يعطي القصة القولية حرارة وسخونة، فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري، معزول عن الواقع.

وهكذا بين الحقّ (سبحانه وتعالى)، في هذه الآية، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه، بواسطة الرسل، إلى بعض خلقه. فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب، أولاً، وتوظيف ما علم، ثانياً. وبذلك يرتفع من منطق الأرض، إلى منطق السماء. ومن يعطيه الله ذلك المنهج، ما كان يصحّ له أن يترك ارتفاعه إلى السماء، ليهبط إلى مستوى الأرض. وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم، وعلى وفق نظمهم، ويتركون منهج الله، الذي خلقهم وصنعهم، ووضع لهم قانون صيانتهم (٤٧).

وهؤلاء الناس حرموا من الانتفاع بمواهبهم الفطرية، بعدم استعمالهم إياها فيما يرفعهم درجات، في العلم والعمل، "وكأين من إنسان استعمل حواسه في الضرّ، وعقله وذكائه في الشرّ، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" (٤٨).

فلقد كانت آيات الهدى، وموحيات الإيمان، متلبسة بفطرتهم وكيانهم، وبالوجود كله من حولهم.

أثناء الحركة الواقعية، يصوغ للناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم. ثم يصوغ للناس، بعقولهم المنضبطة به، تشريعاتهم القانونية، الفقهية، وعلومهم الكونية، والنفسية، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية.. يصوغونها، وفي نفوسهم حرارة العقيدة، ودفعتها، وجدية الشريعة، وواقعيتها، واحتياجات الحياة الواقعية، وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة، والحياة الإسلامية.. أما الدراسة النظرية، مجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقلة الأرض، ودفعة الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدم للحياة البشرية خيراً" (٤٦).

﴿فَأَقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
وقول الحقّ: [فَأَقْصُصْ الْقِصَصَ]، يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ. بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة، وكل مرة يأتي - سبحانه - بلقطة جديدة، لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر. ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ، لقال لنا روايته مرة واحدة. ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل، ومن قصص المبطلين مع الحقين، ومن قصص

ثم إذا هم ينسلخون منها انسلخاً. ثم إذا هم أمساخ، شائهو الكيان، هابطون عن مكان (الإنسان)، إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح، يرفون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين!

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض، واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه، كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعربها من الغطاء الواقى، والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان، يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهات الكلب، أبداً!!! وهل يبلغ قول قائل، في وصف هذه الحالة، وتصويرها، على هذا النحو العجيب الفريد، إلا هذا القرآن العجيب الفريد!!

فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله، بعد أن تبين لهم، فيعرفوها، ثم لا يستقيمون عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به.. هواهم، وهوى المتسلطين، الذين يملكون لهم- في وهمهم- عرض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله، ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة، لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان، المعتدي على سلطان الله، وحرماته، في الأرض، جميعاً! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم، ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله- سبحانه-، من ادعاه، فقد ادعى الألوهية. ومن ادعى الألوهية، فقد كفر. ومن أقر له بهذا الحق، وتابعه عليه، فقد كفر أيضاً! .. ومع ذلك.. مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت، الذين يدعون حق التشريع، ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق.. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميه (المسلمين)! ويسمى ما يزاولونه إسلاماً، لا إسلام بعده! .. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا عاماً، ثم يكتب في حله عاماً آخر.. ورأينا منهم من يبارك الفجور، وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الرجل، رداء الدين، وشاراته، وعناوينه..

فماذا يكون هذا، إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا، إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ

وتكون الآية تحذيراً للناس عن اتباع أهوائهم، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها، واتباع الأغراض الدنيئة، وترك ما أرشدتهم إليه آيات الل،ه من الإيمان بالله، وبرسوله، وبالآخرة.

والآية واضحة الدلالة على أن المعرض عن آيات الله، واقع في الضلالة والغواية، بسبب سوء فعله، واختياره العمل بما هو قبيح، شرعاً ومروءة.

وعلى الإنسان الاعتبار بهذه القصة، والتأمل والتفكر في آيات الله، بعين البصيرة والعقل، لا بالهوى والحقد والعداوة. وفي إيراد هذا المثل، والتشبيه بالصورة الواقعية، إشارة إلى أن للأمثال تأثيراً قوياً في إقناع السامعين، وأنها أقوى أثراً من إيراد الحجج والبراهين.

وفيها إشارة أيضاً إلى أهمية التفكير، وأنه مبدأ الوصول إلى الحقيقة، والعلم، والمعرفة الصحيحة. كما قال تعالى، في مناسبات كثيرة، في كتابه(٥٠) □

مسيريك - في: رمضان ١٤٣٥هـ / تموز ٢٠١٤م

الهوامش:

- (١) - الراغب الاصفهاني، المفردات: (ص٤١٩).
- (٢) - المرتضى الزبيدي، تاج العروس: (٢٧١/٧).
- (٣) - ابن منظور، لسان العرب: (٢٥/٣).
- (٤) - ابن عطية، احرر الوجيز: (٤٧٧/٢).

هَؤُلَاءِ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴿.. ولو شاء الله لرفعها، بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه- سبحانه- لم يشأ، لأن ذلك الذي علم الآيات، أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، ولم يتبع الآيات..

إنه مثل لكل من آتاه الله من علمه، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان. وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان. ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان! ثم ما هذا اللاهث، الذي لا ينقطع؟(٤٩).

فقه الحياة

الهدف من هذه القصة، ضرب مثل لجميع الكفار، المعرضين عن الإيمان بالله والرسول، بعد ما عرفوا الحق. فمن آتاه الله العلم والدين، فمال إلى الدنيا، [وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ]، كان مشبهاً بأحسن الحيوانات، وهو الكلب اللاهث. حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لا حاجة، أو ضرورة.

وشبهه حال كل كافر، بحال رجل عرف آيات الله، ثم تركها وراء ظهره. وهذا ينطبق على (بلعم بن باعوراء)، أو غيره، ممن اتصف بهذه الصفة. فلم تعين الآية اسم من ضرب به المثل. وحينئذ لا يهم، سواء أكان ذلك مطابقاً لبعض الروايات، بأنه رجل من بني إسرائيل، أو الكنعانيين، أو أهل اليمن، أم من غيرهم.

- (٥) - القرطبي، أحكام القرآن: (٣٢١/٧).
- (٦) - لسان العرب: (١٨٤/٢)، تاج العروس: (٣٥١/٥).
- (٧) - خواطر الشعراوي: (٤٤٥٧/٧).
- (٨) - مفاتيح الغيب: (٤٠٥/١٥).
- (٩) - نفسه.
- (١٠) - محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٣٤١/٩).
- (١١) - في ظلال القرآن: (١٣٩٦/٣).
- (١٢) - خواطر الشعراوي: (٤٤٥٤/٧) - (٤٤٥٥).
- (١٣) - ابن قتيبة، غريب القرآن: (١٥٠/١).
- (١٤) - مفاتيح الغيب: (٤٠٤/١٥).
- (١٥) - نفسه.
- (١٦) - محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٣٤٢-٣٤١/٩).
- (١٧) - خواطر الشعراوي، (٤٤٥٦/٧).
- (١٨) - تفسير المنار: (٣٤٢-٣٤١/٩).
- (١٩) - ابن عطية: (٤٧٧/٢).
- (٢٠) - خواطر الشعراوي، (٤٤٥٧/٧).
- (٢١) - ابن قتيبة، غريب القرآن: (١٥٠/١).
- (٢٢) - الزجاج، معاني القرآن: (٣٩١/٢).
- (٢٣) - زاد المسير: (١٧١/٢).
- (٢٤) - انحر الوجيز: (٤٧٨/٢).
- (٢٥) - ابن الجوزي، ذم الهوى: (ص١٢)، روضة الخبير: (ص٣٣١).
- (٢٦) - آفات على الطريق، الأفة التاسعة: آفة الهوى.
- (٢٧) - الأخلاق الإسلامية: (٢٣٦/١).
- (٢٨) - مصطفى السعيد، الإعجاز التأثري: (ص٢٣٩).
- (٢٩) - الرازي، مفاتيح الغيب: (٤٠٥/١٥).
- (٣٠) - روضة الخبير: (ص٣٣١).
- (٣١) - الكشف: (٨٩/٤).
- (٣٢) - لباب التأويل: (٣٩/٤).
- (٣٣) - في ظلال القرآن: (٣٨١٩/٦).
- (٣٤) - نفسه: (٢٧٠٠/٥).
- (٣٥) - جامع العلوم والحكم، إحياء التراث العربي: (ص٤٧١).
- (٣٦) - أدب الاختلاف في الإسلام: (ص٢٧).
- (٣٧) - الموسوعة العربية العالمية، مادة: كلب" مقالة للدكتور زغلول النجار، جريدة الأهرام: العدد ٤٢٨٢٦، مارس ٢٠٠٤م.
- (٣٨) - المصدر السابق.
- (٣٩) - لسان العرب: (١٨٤/٢)، تاج العروس: (٣٥١/٥).
- (٤٠) - الزجاج، معاني القرآن: (٣٩١/٢).
- (٤١) - ابن عطية، انحر الوجيز: (٤٧٨/٢).
- (٤٢) - الزمخشري، الكشف: (١٧٨/٢).
- (٤٣) - ابن الجوزي، زاد المسير: (١٧١/٢).
- (٤٤) - الرازي، مفاتيح الغيب: (٤٠٥/١٥) - (٤٠٦).
- (٤٥) - في ظلال القرآن: (١٣٩٨-١٣٩٧/٣).
- (٤٦) - في ظلال القرآن: (١٣٩٩/٣).
- (٤٧) - خواطر الشعراوي: (٤٤٦١/٧).
- (٤٨) - تفسير المنار: (٣٤٢-٣٤١/٩).
- (٤٩) - في ظلال القرآن: (١٣٩٨-١٣٩٦/٣).
- (٥٠) - الزحيلي، التفسير المنير: (١٦٤/٩) - (١٦٥).

مراعاة فقه الأولويات في تطبيق الشريعة الإسلامية



د.أياد كامل الزيباري

يهلكه. والأولويات جمع أولوية، وهي مصدر أولى (٣).

ثانياً: في الاصطلاح:

عرّف العلماء مصطلح الأولويات بعدة تعاريف، منها: ترتيب العالم أو الداعية لأوراقه، الأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، والأنفع للمدعوين فالأنفع (٤).

ومنها: وضع كل شيء في مرتبته، فلا يؤخر ما حقّه التقديم، أو يقدم ما حقّه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير، ولا يكبر الأمر الصغير (٥).

والتعريف المختار هو: "العلم بالأحكام الشرعية، التي لها حق التقديم على غيرها بناءً

عما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن في الشريعة الإسلامية أولويات في مختلف المجالات، أولويات في قضايا الإيمان، وفي الأعمال، وفي الأمر والإنكار، وفي العلم، وفي التعليم، وأولويات في التبليغ والدعوة، وأيضاً أولويات في تطبيق الشريعة الإسلامية.

مفهوم فقه الأولويات

أولاً: الأولوية في اللغة:

له عدة معانٍ متقاربة، منها الأحق والأجدر، فيقال: فلان أولى بهذا الأمر من فلان، أي أحق به وأجدر. ومنها: الأقرب (١)، ومنها: التهديد والوعيد. ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ، ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ (٢)، أي قاربه ما

وَلَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَآتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ (١٠).

٤- إن فقه الأولويات هو السبيل إلى كسب القلوب وتأليفها، وذلك بالقضاء على كثير من الخلافات الواقعة في الحقل الإسلامي، مما يساعد في وحدة الصف، وتقوية الروابط الداخلية (١١).

٥- إن فقه الأولويات سبيل إلى حفظ المسلمين وبقائهم، وإن فقدان الأولويات سبيل إلى الضرر في الدين والدنيا، وهو سبيل للتخبط في التخطيط والعمل، والفشل في أغلب الأحيان. وكذلك غياب الأولويات يؤدي إلى الانشغال بالجزئيات دون الكلليات، وهو سبيل لترسيخ التقليد والتبعية (١٢).

٦- إن فقه الأولويات سبيل إلى تحقيق الغاية الأسمى والأعلى للمسلمين، وهي تطبيق الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية. والدولة الإسلامية هي السبيل إلى رعاية مصالح العباد الدينية والدنيوية.

الأولويات التي تراعى في تطبيق الأحكام الشرعية

وهناك بعض الأمور يجب أن تراعى في تطبيق الشريعة (١٣):

- ١- تقديم الرابطة الدينية على غيرها.
- ٢- تقديم الأصول على الفروع.

على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلبها" (٦)، وذلك لأنه اشتمل على العلم بالأحكام الشرعية، العملية، ومعرفة الواقع الذي لا يُستغنى عنه، وكذلك وضع كل تكليف شرعي في موضعه ومنزلته، من حيث التقديم والتأخير، والتصغير والتكبير، ومعرفة ما هو أجدر من غيره، بناءً على العلم بمراتبها.

أهمية فقه الأولويات

تتبيّن أهمية فقه الأولويات في النقاط الآتية:
١- فقه الأولويات هو السبيل للحفاظ على الدعوة والداعي (٧).

٢- فقه الأولويات لا يمكن أن يستغنى عنه الفقيه (٨). ويتبيّن ذلك المعنى في قول النبي (صلى الله عليه وسلم)، لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَأَدْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى قُرْبَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (٩).

٣- يعدّ فقه الأولويات الأساس في ترتيب أمور المسلم، ويتبيّن ذلك في الحديث: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،

الهوامش:

- (١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٠٥٥. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص١٤١. والفيومي، المصباح المنير في غريب شرح الكبير، ج٢، ص٦٧٢.
- (٢) سورة القيامة: الآيتان (٣٤-٣٥).
- (٣) الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص٧٤٠. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص١٤١.
- (٤) د.عدنان آل عرعور، منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، ص١٠.
- (٥) د.يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص٣٨.
- (٦) محمد الوكيل، فقه الأولويات دراسة في الضوابط، ص١٦.
- (٧) د.عدنان عرعور، منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، ص١٠.
- (٨) د.يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص٤١.
- (٩) البخاري، الجامع المسند الصحيح، ك/ المغازي، ب/ بعث معاذ إلى اليمن، رقم الحديث ٤٣٤٧.
- (١٠) البخاري، الجامع المسند الصحيح، ك/ الصوم، ب/ من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم الحديث ١٩٨٦.
- (١١) د.مجدي الهاللي، من فقه الأولويات في الإسلام، دار النشر الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص٧.
- (١٢) ينظر: د.عدنان عرعور، منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، ص١٦. ومحمد الوكيل، فقه الأولويات، دراسة في الضوابط، ص ت.
- (١٣) ينظر: د.يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية في ضوء النصوص الشرعية ومقاصدها، ص٣٠٧-٣١٥.
- (١٤) المصدر نفسه، ص٣١٥-٣١٨.

٣- الأولوية للعقيدة.

- ٤- الأولويات للجانب المعرفي قبل الجانب العملي.**
- ٥- الأحكام القطعية أولاً.**
- ٦- رعاية المصالح برتبها الثلاث، فتقديم المصالح الضرورية على المصالح الحاجية، وتقديم الحاجية على التحسينية.**
- ٧- الفرائض أولاً، ثم النوافل.**
- ٨- فرائض العين أولاً، ثم فرائض الكفاية.**
- وأما الأولويات في جانب المنهيات:**
- ١- الكبائر بعد الكفر.**
- ٢- الصغائر بعد الكبائر.**
- ٣- الشبهات بعد الصغائر (١٤).**
- ومع ذلك يتبين لنا أن من فقه الأولويات ما يأتي:**
- ١- للدعوة إلى الله سُلّم أولويات ينبغي الحذر من الإخلال به، فالعقيدة هي الأساس، ثم بقية الأركان والواجبات تأتي تبعاً.**
- ٢- أولوية التدرج في دعوة الناس إلى الله، ومخاطبتهم بما يفهمون، وتحميلهم ما يطيقون، لتجنب نفورهم عن الإسلام، وإعراضهم عن مبادئه. لأن سمة التدرج ليست من أولويات الدعوة إلى الله فحسب، بل هي سمة من سمات الشريعة الإسلامية عامة، بما فيها الدعوة إلى الله** □

قصة الشيطان والأفلام الدينية في السينما الأمريكية (هوليوود)

قراءة نقدية



د. أكرم فتاح سليم / (تخصص مقارنة الأديان)

Akram_duhoky@yahoo.com

لكن الغرض الأكبر هو تشويش عقيدة الناس وأفكارهم، وبث وترويج الخرافات والأباطيل بصورة ملحوظة، خاصة عند شباب المسلمين بعد انتشار الجهل والتخلف بينهم، وحب التقليد، والتأثر بأبطال هذه الأفلام. وسوف نذكر قصص بعض هذه الأفلام، بصورة موجزة، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١. (The Devil's Advocate) محامي

(الشيطان) إنتاج عام ١٩٩٧م..

فلم يحكي قصة محام يتحول من شخص غير معروف، إلى أحد أقوى المحامين في الولايات المتحدة الأمريكية، يحصل على كل ما يتمناه، ولا شيء يعترض طريقه، يستمر على هذا المنوال لفترة طويلة، مستمتعاً بما

في السنوات العشر الأخيرة تم إنتاج مجموعة من الأفلام في السينما الأمريكية، تتحدث عن أمور غيبية عقائدية وقضايا دينية، خاصة في عام ٢٠١٤م، والذي كان حافلاً بالأفلام الدينية المسيحية، التي بثها عادة مجموعة قنوات MBC، وكذلك قناة TOP Movies، أفلامٌ بطلها الشيطان، أو أحد أعوانه، والتي كان الحرك الأساسي فيها للأحداث. لم ير أحد منا الشيطان بصورته الحقيقية، لكن مع أفلام هوليوود، يمكنك رؤية تصور صناع السينما للشيطان، وشكله، وقوته التدميرية للعالم وللشعر، وإن كان الغرض منها الأثارة والترويج والحصول على أرباح طائلة من خلال عرض أفلام الرعب،



هذا الفلم من بطولة الممثل الشهير (أرنولد شوارزينغر). أحداثه تدور في الأيام الأخيرة للقرن العشرين، حيث يقرر الشيطان زيارة مدينة (نيويورك)، للبحث عن الزوجة المختارة، وعلى (شوارزينغر)، الذي يؤدي دور شرطي سابق، إيقافه قبل أن يتمكن من الزواج، والحصول على ابن يدمر العالم.

٤. The Omen (الطالع) إنتاج عام ٢٠٠٦م..

قصته أن سفيراً أمريكياً يمتلك أسرة صغيرة وطفلاً وحيداً، يكتشف بعد مرور فترة، أن هناك العديد من التصرفات الغريبة التي تحدث في منزله، وفي جميع مظاهر الحياة حوله، وبعد

يحدث حوله، حتى تنقلب الأمور رأساً على عقب، ويكتشف أن مديره في العمل، والمسؤول عن كل النجاحات التي حققها، هو (إبليس) نفسه.

٢. Solomon Kane (سليمان كين)

إنتاج عام ٢٠٠٠م

قصة هذا الفيلم تبدأ بأن أحد المرتزقة الأقوياء يكتشف أن مصيره مرتبط بالجحيم مع الشيطان، فيقرر التوقف عن القتل والعمل على إنقاذ فتاة مخطوفة من مجموعة من السحرة، إلا أنه يجد نفسه يقف في وجه الشر والشيطان وحيداً، ثم ينتصر عليه.

٣. End of Days (نهاية الأيام) إنتاج

عام ١٩٩٩م..

فيتصاحبان، ويعاودان تركيب المطبعة، حيث يجلس حامل الكتاب المقدس، وقد حفظ الإنجيل، ثم يبدأ الكاتب بكتابته حرفياً، وتتم إعادة طباعته، ويجعل له هدفاً، بأن يكون هو الرسول الجديد، لنشر المسيحية من جديد لمن بقي حياً على كوكب الأرض.

عند ذكرنا قصص هذه الأفلام الستة، تبين أنها تطرقت إلى أمور عقائدية خاطئة، قد يتأثر بها المشاهد الساذج، منها قوة الشيطان الكبيرة، وشكله الضخم، وممارساته، وتحوله إلى صورة بشر، وزواجه بهم، وغير ذلك من الخرافات.

فالله سبحانه يذكر في (سورة الناس) أن ليس للشيطان سلطان على بني آدم، إلا وسوسته لهم، لقوله في كتابه الكريم: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ الناس / آية ٥. وكذلك اغراؤهم لبني آدم، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ البقرة / آية ٣٦. في الآية تبين أن الشيطان أزل آدم وحواء عن طاعة الله سبحانه، بعد أن لعن وأظهر التكبر، وهنا تظهر غريزة الإنسان، وضعفه أمام المغريات. وكذلك إنساؤه إياهم ما يذكرون، كما في قول الله تعالى حكاية عن صاحب موسى (عليه السلام): ﴿فَأَنِّي نَسِيتُ الْكُوتَ وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ الكهف: آية ٦٣. والمراد من نفي سلطان الشيطان على المؤمنين، هو نفي ما يبلغ به مراده من

بحث وتدقيق يكشف أن ابنه الصغير هو المسيح الدجال.

٥. Darkness Falls (سقوط الظلام) إنتاج عام ٢٠٠٣م..

يحكي الفيلم قصة روح شريرة، انتقلت من المدينة التي أعدمها منذ ١٥٠ عاماً بتهمة السحر والشعوذة، لتقوم بتدمير البلدة بأكملها بكل ما فيها، عدا طفل واحد، وقف في وجهها، وبعد مرور سنوات عديدة ينضج ويصبح كل منهما خطراً على الآخر، لتبدأ المواجهة المحتدمة، باستخدام كل أساليب السحر والشعوذة.

٦. The Book of Eli (كتاب إيلي) إنتاج عام ٢٠١٠م..

قصة هذا الفلم عبارة عن وقوع كارثة نووية حلت بالأرض بشكل كامل، حيث نجت فئة قليلة من سكانها، وحلّ الفساد والقتل والسرقة، وتمّ تدمير كل نسخ الكتاب المقدس، ولم يبق إلا نسخة واحدة منه، حملها شخص نجى من الكارثة، وهو يسير باتجاه الغرب، وهو لا يعرف لماذا يسير إلى هذا الاتجاه، إلا أنه يسمع صوتاً خفياً يقول له: (اتجه إلى الغرب، فأنت محمي، ولن يصيبك مكروه)، (إشارة إلى العالم الغربي)، فيتجه غرباً، ويقراً جزءاً منه يومياً، ويتعرض إلى الكثير من المخاطر في رحلته، ثم يصل إلى جزيرة يوجد فيها مطبعة وكاتب،

تخصيص ما يزيد على المائة مليون دولار لإنتاج سينمائي، في (هوليوود)، ولاية السينما الأمريكية، ويشمل إنتاج خمسة عشر فلماً، أعدت مادتها من (سفر التكوين)، وثمانية عشر فلماً، أعدت مادتها من (إنجيل لوقا)، لترسيخ فكرة أن الغرب سينقذون العالم، بمن فيهم المسلمين، بعدما انتشر وزاد شرُّ البشر في استخدام الأسلحة الكيماوية، والنوية، وتطبيق التجارب العلمية على المرضى؛ لمعرفة قوة الفايروسات والميكروبات، وكيفية القضاء عليها. فهذا الجزء من القصة صحيح، فيما يتعلق باستخدام الأسلحة، والتجارب العلمية. وهذه الأفلام ليست للكبار فحسب، بل فيها أفلام موجهة للأطفال والصغار، فينبغي على شبابنا الحذر من محكمات هذه الأفلام، ومطالعة القضايا العقيدية والغيبية، وفق منهج صحيح منسجم مع عقيدة أهل السنة والجماعة □

المؤمن، وإن قوة الإيمان تدفع إغراءه. فالإيمان والتقوى حصنان للحق في جميع الظروف والأوقات، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ سورة النحل ٩٨ - ١٠٠.

وكذلك روجت هذه الأفلام السحر والشعوذة، والأيام الأخيرة لعمر الأرض، أي (يوم القيامة)، وقدم المسيح الدجال. فمن أراد الإمام بهذا الموضوع، بشكل صحيح، وحسب عقيدة أهل السنة، فليرجع إلى كتاب (نهاية العالم في أشراط الساعة)، وكذا: (العالم الأخير)، تكملة لنهاية العالم، هذان الكتابان للدكتور (محمد العريفي) - دكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة - يتحدثان عن علامات القيامة، مرفقاً بالصور وأماكن حدوثها. وتظهر كذلك في هذه الأفلام، الأمور الشيطانية "كابن الشيطان، وشبح مصاصي الدماء، كما تظهر فيها الطقوس الغريبة للعبادات الشيطانية، واستخدام الوشوم على أطراف الجسم، والتي لاقت رواجاً كبيراً لدى جمهور المشاهدين الأمريكيين.

وجاء في دراسة استطلاعية أعدتها (منظمة إذاعات الدول الإسلامية) بـ(جدة): أنه تم

عقب الكلمات



عبد الباقي يوسف

abdalbakiuosf@gmail.com

الاستدراج إلى الشنآن

لعل ما يحدث الآن من أعمال استفزازية، تعزز رد الفعل بالنسبة للبعض، فيردوا على الظلم بالظلم، وبذلك يكونوا قد خرجوا من العدل إلى الظلم، ويكون الظالم قد أفلح في استدراج إنسان عادل إلى ممارسة الظلم والطغيان. وقد جاء التنبيه مع الحذر الشديد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المائدة/ ٢.

تؤسس هذه العبارة لقاعدة تربوية وأخلاقية وإنسانية في منهج الإنسان المسلم، بحيث يكون على حذر كي لا يصبح معتدياً، نتيجة ما يصدر من بعض الأشخاص من أقوال أو أفعال. فـ {لَا} تسمحوا لهؤلاء أن يدفعوكم إلى حالة العداوة، لتصبحوا مثلهم في ممارسة الاعتداء. والكلمة مشتقة من الجريمة: {لَا يَجْرِمَنَّكُمْ}. فـ {لَا}: احذروا، أن {يَجْرَ}: يسحب، من الجرم. فلا تدعوهم يجرؤكم بشنآنهم، لأن ذلك يؤدي بهذا الشنآن أن {يَجْرِمَنَّكُمْ}، يوقعكم في الجرم، فتصبحون مثلهم مجرمين، لأنهم مصدر الجريمة. فلا يُسْرَب {شَنَاٰنُ قَوْمٍ}، نزعة الجرم إلى نفوسكم. والـ {شَنَاٰنُ} هو البغض. فهؤلاء يكتون لكم البغضاء والشحناء، {أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، تعرّضوا لكم في ذهابكم إلى {الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}. وكان ذلك عندما فتح المسلمون (مكة)، فصدهم بعض الذين حاربوهم من (قريش)، عن دخول {الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}. فلا تلتفتوا إليهم، ولا تستحيبوا لمكيدتهم، فهم يبتغون {أَن تَعْتَدُوا}. والاعتداء هنا هو تجاوز لما أمر الله بالدفاع وفق حدود الله. فلا {تَعْتَدُوا}: لا تتجاوزوا حدود الله، إن أصبحتم في حالة قتال مع الذين يقاتلونكم، ولا تنجروا خلف ردود الأفعال، ولا يأخذكم الانفعال إزاء {شَنَاٰنُ} هم، فيجعلكم هذا الانفعال مُعتدين. ففي ذلك تأجيج للخلاف، حيث تصبحون شركاء فيه.

فلا يجوز لك أن تقابل الحيانة بالحيانة، لأن ذلك سيجعلك خائناً، ويكون الخائن قد استدرك لتكون خائناً مثله. عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: "تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه".

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ثم وجه إلى مرجعية التقوى، لتجاوز حالة الانفعال إزاء {شَتَانُ} هَمٌّ، فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ}. ثم ذكروهم بـ {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، إن واجهوا {شَتَانُ قَوْمٍ} بالاعتداء، فعندئذ يعرضون أنفسهم لعقاب شديد من الله، لأنهم سيكونوا قد خالفوا أمر الله بـ اللّا اعتداء.

كذلك يأتي الشَتَانُ في قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة/ ٨.

لا يجعلكم {شَتَانُ} حَقْدُ {قَوْمٍ} يَكُونُ لَكُمْ الْغُلُّ {عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا} أن تحيدوا عن العدل، فيجعلكم {شَتَانُ قَوْمٍ} - {شَهْدَاءُ} - بِالْجَوْرِ، بدل {شَهْدَاءُ بِالْقِسْطِ}، فتقوموا على الـ {شَتَانُ}، بدل أن تـ {كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ}. فالـ {شَتَانُ} هو استدراج من العدل إلى الجور، ومن الوفاء بالعهد إلى النقض به. ثم يبين للمؤمنين به: {اعْدِلُوا} بأن تكونوا - {شَهْدَاءُ بِالْقِسْطِ} - فذلك {أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ}، وذلك يعني أنكم إذا رضختم لـ {شَتَانُ قَوْمٍ}، فهو أبعد {لِلتَّقْوَىٰ}.

فالعدل هو سلوك إنساني، ولذلك جاء أمر الله بـ {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ}، أي: لا يُخْرِجَنَّكُمْ شَتَانَهُمْ مِنَ الْعَدْلِ، الذي أمر به الله، فتجنحوا إلى الظلم. إن الظلم الإنساني، الذي يتجرد فيه الإنسان من مشاعره الإنسانية، مهما تظاهر بمظهر القوة، فإنه مبني على هشيم. والعدل المبني على مشاعر الأخوة الإنسانية، والتكاتف الإنساني، مهما تظاهر بمظهر الوهن، فإنه مبني على أسس لا ترححها أعتى الرياح. يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "من ابتلي بالقضاء بين الناس، فليعدل بينهم في لفظه وإشارته ومقعده ومجلسه، ولا يرفعن صوته على أحد الخصمين ما لا يرفعه على الآخر".

بعد النهي عن ذلك، يقول الله: {وَعَلَىٰ مَا تَبَيَّنَ لَكُمْ {اتَّقُوا اللَّهَ} فِي إِيمَانِكُمْ بِهِ} إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. والخبير هو الذي يخبر دقائق الأمور، وتفاصيلها، مهما بلغت من الدقة □

مقالات

- كوردستان ومنعطفات التغيير السياسي سرهد أحمد
- مَن الذي أكلَ كعكة الوطن...؟! هفال عارف برواري
- أيلان عبدالله كوردي أيمن عبد السميع حسن
- حديث مقتضب عن العلمانية والدين سعد سعيد الديوه جي
- بلادي وإن جارت عليّ عزيزة رولا عبد الرؤوف حسينات
- إن لم تنصت، لن ينصت لك فاتن محمد

مَنْ الذي أكلَ كعكة الوطن...؟



هفال عارف برواري

لكي يقف هذا الوطن على رجليه، ويستعيد قوته، واستقلاله، مثلما فعله الكثيرون، أمثال: نيلسون مانديلا، وغيرهم. وبالتالي، ليزدهر هذا الوطن، بحيث يكون مضمراً للأمثال أمام أوطان العالم..

ولكن العجيب أن ورثة الحكم، والذين ناضلوا من أجل هذا الوطن، حولوا أوراق وراثته الحكم، الى مدعي النضال للوطن نفسه، وليس للسلطة التشريعية المستقلة، والقضاء الوطني. وقد كان من المفترض أن يفسحوا المجال للشعوب، لكي تفرز ما بداخلها من طاقات مبدعة، وتقوم هي بالتقدم والرقى المنشود، والذي كان حلم هذا الشعب، وبه

كثيراً ما نسمع في الآونة الاخيرة مثل هذه المصطلحات التي يطلقها دعاة الوطنية، الذين ناضلوا في سبيل تحرير أراضيهم، والذين كانوا يوماً من الأيام يبيعون الغالي والرخيص في سبيل الوطن، بل كان أحدهم مستعداً لأن يضحي بحياته، عندما يسمع مجرد أغنية حماسية تلهب مشاعره، وسط من كانوا يسمون بالأعداء؟.. ثم ما لبثت أن تحققت مطامحهم وأهدافهم، التي كانت أحلاماً بالنسبة إليهم، وأصبحوا مستقلين، يديرون أمورهم بأنفسهم. وأصبحوا هم وراثته الحكم، وإدارة الوطن، فهم من ناضلوا، وهم يستحقون أن يكون لهم الفضل في زرع بذرة الاستقلال، وإروائها،

و ثروات لا يفهمها العامي، أو لا يستوعب أرقامها!.. أما السلطة، فهي لا تتكلم، ولا تدافع عن نفسها، بل تنهي كل هذا الضجيج فيما يقال من مساوئ ومعاناة، بجمل مختصرة، وهي: "هل تريدون الجلوس على سفرة كعكة الوطن بهذه السهولة؟!*".. "هل تريدون منا، بعد كل هذه التضحيات والنضال الذي قمنا به، أن نترك كعكة الوطن لمن كان في أيام النضال في بطن أمه، أو كان رضيعاً في حضن أمه، أو كان يلعب في الشوارع؟!*".. "هل من المعقول أن يأتي أحد (ما)، على مائدة الأكل، وعلى الحاضر، وهو لم يطبخ، ولم يبع الغالي والرخيص، من أجل هذه المائدة؟!*".. "هل بعد كل هذه المعاناة من أجل الوطن، يأتي أحد (ما)!.. - وكأنّ هذا الـ (أحد ما) جاء من المريخ، وليس هو من أهل الوطن - يأتي ليأكل هو كعكة الوطن؟!*"

مستحيل، وهيئات هيئات.. لن يتذوق أحد الكعكة، إلا من ناضل في سبيل استوائها!.. سبحان الله، لقد أصبح النضال والوطن كعكة تؤكل!..! ولم نعلم ذلك إلا بعد تقارب النظرية الوطنية والقومية بالزوال، وبعد فوات الأوان!.. مع أنها تجدد نفسها منذ الآن!..

إذاً، فلنخرس كل أفواه المعارضة.. لأنه، وبكل بساطة، أصبح الوطن والنضال ليس من أجل الوطن، بل من أجل كعكتها!.. نعم

كانوا يتغنون على أنغامها.. ولهم الحق في ذلك؟ فعندما ذاقوا طعم الحكم، وسطوته، ونعيمه، وملذاته، وما يُجنى من ورائه من أموال طائلة!! نعم، نعم، فالأوطان لها مخزون مالي رهيب، جعل المناضلين القدماء يستشعرون بحرص الأعداء قديماً كي يحتفظوا بهذه الأوطان تحت سطوتهم!..

نعم، لقد وصلوا إلى هذه الحقائق.. لذلك برروا إدامة سلطتهم ونفوذهم إلى أجل غير مسمى! على أسس وأعراف وتقاليد مناطقية! وليس قوانين دولية.. فهم من ناضلوا، وهم من يجب أن يحكموا الوطن!.. وأصبحوا - من غير أن يدروا - عالة على رقاب أوطانهم، وقد نسوا - أو تناسوا - أنّ نضالهم كان في الأصل من أجل تحقيق الحرية والعدالة المطلقة..

والغريب أنهم حولوا الوطن إلى (كعكة)، لكي يأكلوها، وينهبوها!! وأن هذه (الكعكة) هي عربون كل هذا الجهد والنضال الذي قدموه فداءً للوطن!..

نعم، لقد أصبحت الأوطان كعكة تؤكل!! والذي ناضل، هو الذي يستحق هذه الكعكة!.. لذلك ترى معارضي السلطة، في كل انتخابات، يتحدثون عن ما وصلت إليه حال أوطانهم، من فساد، ودمار في البنية التحتية، وتحوّل القانون إلى محسوبة، وأنه.. وأنه.. ويتكلم هذا المعارض ليل نهار عن الأوضاع المتردية، ويتكلم عن إحصاءات

الكعكة؟!.. مَنْ
أكل حصته من
الكعكة (حسب
النظرية الكعكية
للوطن!!)..!
فهو لا يدري ما
يجري ما حوله،
ولم يذوق طعم
الكعكة بعد.. أما
أصحابه في
السلطة، فقد أكلوا
وشرّبوا وتعمّموا
بهذه الكعكة.
ولكن يبدو من
شكله أنه هو
الكعكة!!.. فيه



تؤكل الكعكة، ولولاه لما كان للسلطة هذه
الجرأة في استباحة كل ثروات الوطن لمصالحها،
فهو الوقود الذي يشتعل، لكي تستوي بها
هذه الكعكة!..

لكنني أتساءل: هل الأوطان، حقيقة، هي
كعكة تؤكل...!! أنا لا أدري، لأنني لم أتذوقها
بعد!! □

الكعكة، وما أدراك ما الكعكة، فمن ذاقها من
الصعب أن يتركها بكل هذه البساطة..
لذلك تجد أهل هذا الوطن، الذين ينشدون
الأناشيد من أجله، يستغربون من هذا التهميش
الذي يلاقونه من جانب السلطة. فالشعب هو
آخر شيء تقوم السلطة بالتفكير فيه. في حين
أن الشعب هو الذي قام (في الأصل)
بالنضال، وهو الذي عانى الأمرين، وقد
سُميت الحركات الوطنية باسمه، فسميت
الحركات الوطنية بالحركات الشعبية. فلماذا
تركته السلطة، ولم تعطه استحقاقه من هذه

أيلان عبدالله كوردي



أيمن عبد السميع حسن - مصر

توطئة:

قد غبت عنا.. زماناً طويلاً
فقل لي بربك من يرجعك
فعشقتك ذنب.. وهجرك ذنب
أسافر عنك.. وقلبي معك..
(فاروق جويده)

الرجال الأوفياء؛ لوداع هذا الطفل النبيل،
الذي ذابت روحه حيناً لتراب وطنه.. لقد
أفنى الطفل عمره القصير وهو يصلي في محراب
الوطن، وأسهم باقتدار فريد في صقل الوجدان
العالمي.. فغادر هذه الدنيا وهو قابض على حجر
الوفاء، مترنماً بهذه الطفولة الساحرة، مما يؤكد
عمق التحامه بشرى وطنه..

(١)

قبل البدء.. بلحظة.. قراءة على عجلٍ
.. بعد الرحيل ..

في وداع جنائزي مهيب، وبقلوب منفطرة
حزناً وأسفاً، شيع العالم فارس البراءة، وحارس
الطفولة: (أيلان عبد الله كوردي)..
لقد احتضنت أرض سوريا، طفلها الجميل،
وأودعته طيبة من طياتها الحانيات، وتقاطر

(٢)

الطفل الذي حارب الأمواج ..

وحده وصل إلى الشاطئ، لم يكثرث كثيراً
بفراقه للدنيا، وإنما كان سعيداً، لأنه سيرتاح..
أخيراً سيفادر إلى عالم يحترم براءته، يخلو من
قتلة باسم الدين، وقتلة باسم الوطن، ومهربون
لم يروا في مأساته سوى فرصة لجني مزيد من

يضج في أركان البيت، وهو يركل الكرة المطاطية مع أخيه الأكبر.. ويصبح ضاحكاً..

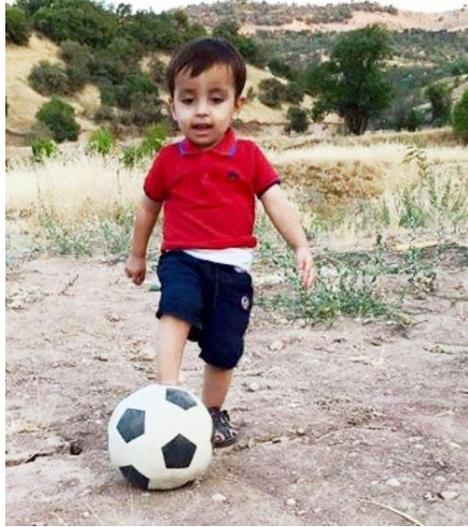
(٣)

المشهد/ خارجي/ ليلاً..

مشاعري تتوهج بين المد والجزر، ويغتالي الشroud، ذاك الطفل بات غريباً، ولن يعود.. كان الظلام يحيم على سطح البحر الهائج، فراح الأب يصرخ، يمزق نياط القلب، مجذوعاً، يبحث عن أسرته، يستجدي بالأضواء.. لكنه عندما وصل إلى اليايسة بعد عناء، علم بالكارثة التي حلت بكامل أسرته، فأخذ يصرخ، ويصرخ، وكأنه يطرق أبواب السماء بمعول حزين، كسيراً.. وأخذ يجترّ ما علق بذاكرة ليلة أمس، فقد انزلق ابنه: (غالب - ٥ سنوات)، و(أيلان - ٣ سنوات)، وأمهم: (ريحان - ٣٥ سنة)، لقد ابتلعهم البحر أمام عينيه، بعد صراع بين الموت والحياة، لكن الموت تغلب، وظل الوالد المثخن بالجراح يحثو التراب فوق رأسه، وقلبه ينزف بوجع غير مسبوق..

وقد أكدت مصادر إعلامية تركية، أن الطفل السوري الغريق (أيلان)، والذي رجّ الكرة الأرضية بجسده الملائكي، الذي تلاعبت به الأمواج، هو لأسرة سورية، كانت هاربة من ولايات الحرب بالأراضي السورية.. اسمه بالكامل: (أيلان عبد الله كوردي)، يحمل

المال.. لم تكن صورة لطفل، وإنما هي الإنسانية التي وصلت إلى شاطئ النهاية لتلفظ أنفاسها



الأخيرة، وهي تتابع مأساة مئات الآلاف، الذين ظنوا أنفسهم محظوظين بفرارهم من آلة الحرب في (سوريا)، ليجدوا أنفسهم في مصير أكثر سوءاً، وهم يواجهون الموت وسط البحر المتوسط.. ربما كان الطفل يحلم بلعبته، التي تركها خطأً وسط أنقاض منزله المدمر.. ربما كان يُمني نفسه بلعبة مثلها، في (ألمانيا)، تلك الدولة التي يتحدث عنها والدها، وكأنها الحلم، لا يعرف عنها الكثير، ولكن يبدو أن بها لعبة مثل التي فقدتها تحت الأنقاض، وهذا هو الأهم.. فهل بقي للعالم من بقايا ضمير!!؟

أراه - في مشهد فلاش باك - ما زال وقع خطواته، وصخب حضوره المباغت كرحيله،

أظهر البحر مدى الدقة التي شذب به والده شعره، حيث استخدم في حلق شعر (أيلان) كل تجربته الطويلة في الحلاقة، التي كانت مهنته في (كوباني)، قبل أن يهاجر إلى (تركيا)، فقد صفف البحر شعره، كما لو كانت أمه فعلت ذلك.. الطفل كان يخفي وجهه الصغير بين أحضان الماء، وعيونه الجميلة، الضارعة المستكينة، مغسولة بحليب من (يود البحر) اللاذع، وزبده، يخلق فوقه سرب هائل من طيور (النورس)، زاعقة، تستجدي كل البشر، وترسل لهم إشارات صارخة، وكأنها تصنع - بحرفية - مشهداً جنائزياً مهيباً.. وكان الغريق - بدوره - يرسل أيضاً رسائل نورانية، شديدة اللهجة، صوب السماء، مفاد تلك الرسائل، تخرج مكلفة بتاج من النور المسبج: (إنني ذهبت إلى الله مبكراً.. وشكوتكم إليه)..

أراه يعطينا ظهره، لأننا أعطيناه - قبل ذلك - ظهورنا.. كل البشر أراهم جُناة، في رحيل هذا الملاك الصغير، وكل من على شاكلته.. لقد خذلوه، وهو يصرخ بصوته المبحوح، يصارع الموج والموت في آن واحد، في عرض البحر، وفي بُهمة الليل الغطيس، حتى لفظه البحر - رغم قساوته - بجنو، دون أن يغير معلماً من معالم جسمه الصغير؛ ليكون هذا المشهد المأساوي شاهداً عياناً على قسوة قلوب البشر، ونحن في ذات الوقت، نقبع بعيداً

من العمر القليل.. وكلمة (أيلان) تعني في اللغة العربية: (حامل راية النصر).. كان الغريق ينام قريبر العين، هادئ النفس، يفترش رمال البحر المتوسط في مدينة (بودروم)، جنوب غربي تركيا.. البحر كان عوضاً عن أن يكون على صدر أمه (ريحان)، والتي غرقت أيضاً في نفس الحادث الأليم..

لقد كان صدر البحر الهائج أحن عليه من صدور كل البشر، لكن الثابت تاريخياً، أن (أيلان عبد الله كوردي) لم يكن الأول في هذا المصير، ولن يكون الأخير.. نعم، فالمشهد هزّ نفسي، ورجّني كالبيض الفاسد.. عزاء (أيلان) في رحيله المبكر جداً، أن أمه (ريحان) سبقته في رحلته إلى الموت، فلم يجتزق قلبها بموته، وموت شقيقه الأكبر (غالب)، سوى بضغ لحظات، عاشتها وهي تصارع الأمواج لإنقاذهما، وعندها انتهى كل شيء، وبقيت حُرقة فراقه، وفراق شقيقه، ووالدتهما، تستعر في قلب أبيه: (عبدالله الكوردي).. ظل (أيلان) وحيداً، على شاطئ تسكنه الوحشة والهدوء القاتل.. كان ينام على بطنه، يفترش رمال البحر، يتخذة سريراً، يرقد عليه بكامل ملابسه الحمراء والزرقاء، وكأنها ملابس العيد المتهجة بنومه، وفي قدميه (النونو)، حذاء صغير، نظيف، كما ألبسته له أمه، الحذاء يحكي عن مباحج وفرحة لصغير لا زال في طوق البراءة..

نقر أن البحر كان رحوماً بـ(أيلان).. كما

أن تتحول صورة
(أيلان)، الملاك
النازل من السماء،
إلى حافر يدفع
بالعالم إلى وضع حد
لمأساة الشعب
السوري، المتواصلة
منذ أكثر من أربعة
أعوام..



*إليك يا
(أيلان).. أطأطأ

رأسي معتذراً لك يا بني، نيابة عن كل البشر،
وبكلماتي التي تتحشرج في حلقي الذي أصابته
المرارة، أقول مخاطباً إياك:

- " يا بني .. رغم طفولتك.. فأنت الرجل
الأوحد فينا.. تركتنا واخترت الجنة.. فرحيلك
يشهد بجرمننا..!!"

أيلان: ترى هل بعد رحيلك ستنسحب
العتمة رويداً من دروبنا؟!.. ومن سيكون أول
اللاحقين بقطار الموت بعدك؟؟

عذراً.. فميزان الرجولة قد اختل، ومعول
النخوة قد كُسر، لكننا نرجو من الله العلي
القدير أن يسامحنا على ما فعلناه، وأن يهب لنا
من أمرنا رشداً.. □

في دورنا، وقصورنا، نلتحف الفرش الوثيرة،
وقد أصابتنا التخمة من فرط الطعام ..

* (أيلان).. أيها الملاك الصغير، يا أيقونة
الحزن الدفين، التي احتزقت كيخور العطارين"
لتنشر طيب الروائح على عالم يمتلئ بالهوان
والخسة.. ربما تكون تلك الروائح المنبعثة من
(المخرة النابضة) ترياقاً لنا، لنعالج من أورام
وخصال خبيثة، لا زالت تتأصل فينا..

* في زمان لم تعد الكلمات فيه تستطيع
التعبير عن حزن المشاعر، أقول لك يا صغيري:
"نوماً هادئاً .. وراحة أبدية"

لا زلت أتذكر صورة جسد (أيلان)، الملقى
كالمسكة الصغيرة على سواحل (تركيا)..
الصورة هزت ضمير العالم أجمع، ودفعت
زعماء الاتحاد الأوروبي إلى التفكير في إعادة
النظر في سياستهم المتبعة إزاء المهاجرين من
الشرق الأوسط، لاسيما السوريين.. وتتمنى

حديث مقتضب عن العلمانية والدين



سعد سعيد الديوه جي

التسمية الأولى طغت، وأخذت مكانتها في المداولات الثقافية والكتب والمقالات والمجلات. ففي الإنكليزية يعرف المصطلح بكلمة (secularism)، والذي تكون ترجمته الحرفية بكلمة (دنيوية)، المشتقة من الدنيا أو العالم أو الزمان.

وأما كلمة (العلم)، في الإنكليزية، فهي science، والمذهب العلمي يسمى scientism، والنسبة للعلم: scientific، وهكذا فالتشابه اللفظي بين المصطلحين هو الذي أحدث هذا الارتباك.

والعلمانية ليست لها شروط، أو أسس، تلتزم بها. وهي طريقة لاستنباط القوانين الاجتماعية

كما لا شك فيه بأنه من أصعب الأمور في المداولات الإنسانية الصرفة، مسألة المفاهيم ووضعها في مصطلحات محددة، حيث تتضاءل كثيراً هذه المسألة في العلوم الطبيعية والتطبيقية إلى حد كبير، كالطب والهندسة والفيزياء، وغيرها من مجالات الحياة.

ومن هذه المصطلحات، المتداولة بشكل واسع وكبير: مصطلح العلمانية، والذي يعتقد كثير من المثقفين بأنه مشتق من (العلم)، وهو غير ذلك تماماً.

فالمصطلح مشتق من العالمية، أو (العالم) (secularity)، والذي يفضل البعض تسميته بالدنيوية، نسبةً إلى الدنيا. ولكن

للتحديث الدائمي، وعليه فهي في حالة تصادم مع قوانين الشريعة، إذا كانت ثابتة. وقد فصل كثيراً من هذه الأمور في كتابه الشهير (بين السياسة واللاهوت)، ثم حدث الطلاق الفعلي بين السياسة والدين، بعد نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨م، حيث تمّ تحييد سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وكان الأمر طبيعياً إلى حدّ كبير، فالمسيحية، كما هي دين بلا شريعة، فالموت المجاني للمسيح على الصليب، والذي يعتقد به المسيحيون، قد جعله يحمل خطيئة البشر منذ آدم، وحتى القيامة. وهو ما سهّل المسألة إلى حدّ كبير، فلا خطيئة في المسيحية يحاسب بها الناس على أسس شرعية، والشريعة الموسوية قد عطّلها (بولص) الرسول، على الرغم من وجود اختلافات في الموضوع، خارجة عن سياق الموضوع الحالي. وعليه، فالعلمانية لا يمكن أن تفهم بأنها ضد المسيحية، لأنها لا تفرض مبادئها على من لا يريد الالتزام بها، أي أنها ليست أيديولوجية، أو عقيدة، بقدر ما هي طريقة للحكم، وإدارة مناحي الحياة المختلفة، حسب رؤى معينة. وهي علاقة جدلية بين العلمانية والليبرالية (التحررية)، حيث أن الأخيرة تحتوي الأولى من ناحية فصل جميع المعتقدات - سواء أكانت دينية أو غير دينية- عن الدولة، وتجعل الإنسان كائناً لا قيود عليه، سوى قوانين المجتمع.

والسياسية والاقتصادية، قابلة للتعديل والتطوير، وتتكيف حسب البيئة التي هي فيها، والمجتمع الذي تتواجد فيه. وعليه فالعلماني ليس شخصاً لا دينياً بالضرورة، وقد يكون كذلك، ولكنه يعتقد أن التشريعات الدينية غير قادرة على مواكبة كل متطلبات العصر بما تقتضيه من قوانين جديدة، وذلك لمواكبة التطورات الاجتماعية والعلمية، في مجالات حياتية شتى، وهي التي سماها المرحوم (عبد الوهاب المسيري) بـ(العلمانية الجزئية). أي أنها، من الوجهة السياسية، هي فك ارتباط الهيئات السياسية والتنفيذية عن السلطة الدينية. والبعض الآخر يفسر العلمانية بفصل الدين عن حياة الإنسان قاطبة، ومواكبة تغيير الحياة حسب مقتضيات الزمان والمكان والعقل، وهي العلمانية الشاملة اللاينية.

وأما دائرة المعارف البريطانية، فإنها تعرّفها بكونها حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدنيوية، بدلاً من الاهتمام بالشؤون الأخروية، والتي سادت منذ عصر النهضة، لإعلاء شأن الإنسان. وكان أهم المنادين بها الفيلسوف (سبينوزا)، الذي عاش في (هولندا)، في القرن الثامن عشر الميلادي، إذ قال إن الدين يحولّ قوانين الدولة إلى مجرد إجراءات تأديبية، وإن الدولة كيان متطور، وتحتاج

ولّد كراهية لهذا المصطلح، الذي ارتبط، في أذهان الكثيرين، بالكفر، وهو ليس كذلك في الأمور الدنيوية المستجدة، ولقد تبنى البعض جهاراً فصل الدين عن الدولة، بعد سقوط الدولة العثمانية، مثل: (علي عبد الرازق)، في كتابه (الإسلام وأصول الحكم)، الذي صدر في مصر عام ١٩٢٥م، وكانت نظريته تقوم أصلاً بأنه لا ترابط بين السياسة والدين، منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الإسلامية، وأنه لا توجد نصوص صريحة بوجوب الخلافة. وقد أثار كتابه موجة عارمة من السخط، لا يزال النقاش حولها جارياً، خصوصاً بعد صعود التيارات التكفيرية. وسيبقى الحديث عن العلمانية، وعلاقتها بالسياسة، قائماً، في البلاد العربية والإسلامية، طالما أن المتمسكين بالعلمانية يرفضون الدين تماماً، والمتمسكون بالدين يرفضون العلمانية تماماً □

أما علاقة العلمانية بالديمقراطية، فهي علاقة متباينة، فقد تكون الدولة علمانية ديمقراطية (حكم الأغلبية)، أو لا تكون. فألمانيا النازية كانت علمانية، والدول الشيوعية علمانية، وكثيراً من الديكتاتوريات علمانية. إن هذه المفاهيم يصعب عكسها على المجتمعات الإسلامية بالقدر نفسه، والشمولية عينها، ففي الإسلام لا يوجد مفهوم كنسي، كما تفهمه المسيحية، والحاكم ليس ظل الله على الأرض، ولا يوجد في الإسلام سلم كهنوتي، كما في المسيحية. ناهيك عن ذلك: أن الشريعة الإسلامية هي العمود الفقري للدين، حيث من الصعب التخلي عنها، ويمكن لكل مسلم أن يطبقها، بدون وصاية من أحد.

والحقيقة أن كل الأحزاب والهيئات العلمانية، في العالمين العربي والإسلامي، التي حاولت أن تقلد الأ نموذج الغربي - المسيحي، قد فشلت، لأنها لم تأخذ بنظر الاعتبار الخصوصية الإسلامية، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى جانب تأكيده على الشريعة، قد قال للمسلمين: (أنتم أعلم بأمر دنياكم).

ومصطلح العلمانية اكتسب في العالم الإسلامي سمعة عدائية، ذات دلالة سيئة، خصوصاً بعد سقوط آخر خلافة عام ١٩٢٤م، على يد (مصطفى كمال أتاتورك)، الذي فسّر العلمانية بأنها حرب شعواء ضد الدين، ويجب تقليد الغرب في كل شيء، مما

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة



رولا عبد الرؤوف حسينات/ الأردن

فيها جماعة ما، وتكوّن هذه البقعة بيئة حاضنة دائمة لأفراد الجماعة: مستقلين، ومجتمعين. قال (ابن منظور) في (لسان العرب): الوطن: المنزل تقيم فيه، وهو موطن الإنسان، ومحله. يقال: وطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيه.

وعند الرجوع إلى كتب المعاجم، والموسوعات، وخاصة السياسية منها، نجد أنها لا تختلف عن المعنى اللغوي. (أ) ففي (المعجم الفلسفي): الوطن - بالمعنى العام- منزل الإقامة. والوطن الأصلي: هو المكان الذي ولد فيه الإنسان، أو نشأ فيه. (ب) في (معجم المصطلحات السياسية الدولية): الوطن هو البلد الذي تسكنه أمة، يشعر المرء بارتباطه بها، وانتمائه إليها.

من هذا نجد تباين تعريف الوطن من منظور لآخر، لكنها جميعاً في النهاية اشتركت: بأنه البقعة الجغرافية التي يمتد إليها انتماء الإنسان وجذوره. بيد أنني أضيف إليه: أنه ليس من

كح ما ظل راسخاً حتى يومنا هذا: "أن الأرض هي العرض" .. صور التاريخ الكثيرين ممن قضوا وهم قابضون على حفنة التراب، يستصرخون: "أموت دونك.. يا أرضي وعرضي، وأنت عليّ أعلى من ولدي".

أهي مجرد حفنة تراب تنقلها الريح إلى حيث تشاء؟ لكنها ما تستطيع أن تنقل منها إلى أبعد من بوصة، وإن تحالفت قوى الطبيعة على جرفها إلى قيعان موات، فإنها تتأبى على الحراك، بل تراها تناضل هنا، وتتسمر في مكانها هناك.. هي الأرض والبيت والحبوبة والأم، هي كل مفردات يمكن أن تتوشح في حبه حسان، والحين دوماً لأول منزل..

الوطن لغة: هو المكان الذي يسكنه الإنسان، ويقيم فيه. جاء في (مختار الصحاح). واصطلاحاً: هو البلد الذي تسكنه أمة، تشعر المرء بارتباطه بها، وانتمائه إليها.

أو هو بقعة الأرض التي تولد عليها وتستقر

ومجتمع سياسي (دولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية. وتتحدد هذه العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق القانون" (غيث، ١٩٩٥م، ص ٥٦). وينظر إليها (فتحي هلال)، وآخرون، من منظور نفسي، بأنها: الشعور بالانتماء والولاء للوطن، وللقيادة السياسية، التي هي مصدر الإشباع للحاجات الأساسية، وحماية الذات من الأخطار المصيرية". (هلال، ٢٠٠٠م، ص ٢٥). أما التعريف الإسلامي للمواطنة، فينتقل من خلال القواعد والأسس، التي تنبني عليها الرؤية الإسلامية لعنصري المواطنة، وهما: الوطن، والمواطن. وبالتالي، فإن الشريعة الإسلامية ترى أن المواطنة هي: تعبير عن الصلة التي تربط بين المسلم، كفرد، وعناصر الأمة، وهم: الأفراد المسلمون، والحاكم (الإمام). وتنتج هذه الصلات جميعاً، الصلة التي تجمع بين المسلمين وحاكمهم، من جهة، وبين الأرض التي يقيمون عليها، من جهة أخرى.

ويعنى آخر، فإن المواطنة هي: تعبير عن طبيعة وجوهر الصلات القائمة بين دار الإسلام، وهي: (وطن الإسلام)، وبين من يقيمون على هذا الوطن، أو هذه الدار، من المسلمين وغيرهم. (هويدي، ١٩٩٥م، ص ١٣).

الضرورة التواجد المادي في الأرض، وإنما يكون الارتباط الروحي والمعنوي هو الأهم.

وفي هذا إنصاف معقول للذين شردوا من ديارهم، من الأجيال المنكوبة التي وجدت نفسها في بلاد وأراض، غير تلك التي دون مسماها في جوازات سفرهم.

أهو ثمن اغترابهم، أن نجردهم من حق التسمية، وحق الحنين، واللهفة، إلى تلك البقعة الصغيرة على الأرض، التي تشغل ملء أنفاسهم، ومشرّبة في حواسهم، وتسري في دمائهم، بل ينبض بها قلبهم الجريح!؟

فلسطين المغتصبة، بوعد مزعوم، لتمثيل حقيقي للوجود الصهيوني، بصفة حق مزيف. قد تجتمع عوامل عديدة في حرمان المرء من أرضه ووطنه، وليس بالضرورة أن تكون له الموافقة، أو الدراية، أو القوة، لمقاومة هذا الاغتصاب العلي لالأرض، أو حق تقرير المصير. ولا بد من ربط هذا المفهوم بآخر قد انسلخ عن الوطن، وهو مفهوم المواطنة والوطنية..

فالوطنية تعبير قومي، يعني: حب الشخص، وإخلاصه، لوطنه. (الموسوعة العربية العالمية). وتعرف (الموسوعة العربية العالمية) المواطنة بأنها: "اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة، أو وطن" (١٩٩٦م، ص ٣١١). وفي (قاموس علم الاجتماع) تم تعريفها على أنها: مكانة، أو علاقة اجتماعية، تقوم بين فرد طبيعي

المعرضة، وعدم خيانة الوطن، والدفاع عنه، وتنميته.

إذاً هي مفاهيم أيديولوجية، اجتماعية، لا يمكن فصل عناصرها عن بعضها البعض، على الرغم من اختلاف التيارات والتوجهات والأيدولوجيات، لأنها تشترك بالشروط والرغبات المشكلة للعناصر الأساسية لتشكيل الوطن والمواطنة.

أم هي، حسب المتغيرات الجديدة، والصراعات، والتهجير القسري، التي قد غيرت مفهومها؟! حيث أصبح الوطن: هو مكان العمل، والمال، وهو هوية الولاء والانتماء.

أم أن الفقر والجهل في الوطن أصبح غربة، بحضور المادية، وغياب الثقافة التقليدية، وتلاشي معنى الأرض، على اعتبارها الوطن، تبعاً للمتغيرات المعاصرة؟!

وعلى مر العصور عانى كل من وجهي العملة، لمد وجزر، وقبول ورفض، متمثل بالثورات والنزاعات. ويمكننا أن نعزي هذا نتيجة للخلل الذي أفرزه العجز الاقتصادي في الوطن، ضمن بقعته الجغرافية، التي يفترض أن توفر أدنى مستويات المستوى المعيشي للفرد، نتيجة تشغيل الأيدي العاملة، بكافة مستوياتها، في العملية الإنتاجية. والتي بدورها هي استغلال للموارد الأساسية، من العوامل المشكلة للاقتصاد، من: رأس المال، والمواد

إن مفهوم المواطنة يتضمن حقوقاً يتمتع بها جميع المواطنين، وهي في نفس الوقت واجبات على الدولة، والمجتمع. منها:

- ١- أن يحفظ لهم الدين.
- ٢- حفظ حقوقهم الخاصة.
- ٣- توفير التعليم.
- ٤- تقديم الرعاية الصحية.
- ٥- تقديم الخدمات الأساسية.
- ٦- توفير الحياة الكريمة.
- ٧- العدل والمساواة.
- ٨- الحرية الشخصية، وتشمل: حرية التملك، وحرية العمل، وحرية الاعتقاد، وحرية الرأي.

وهذه الحقوق يجب أن يتمتع بها جميع المواطنين، بدون استثناء، سواء أكانوا مسلمين، أم أهل كتاب، أم غيرهم، في حدود التعاليم الإسلامية. أي: تلك الحرية المكفولة لكل مواطن، بغض النظر عن دينه أو عرقه أو لونه، بشرط ألا تتعدى إلى حريات الآخرين، أو الإساءة إلى الدين الإسلامي.

٣- الواجبات:

تختلف الدول عن بعضها البعض، في تحديد الواجبات المترتبة على المواطن، باختلاف الفلسفة التي تقوم عليها الدولة. فبعض الدول ترى أن المشاركة السياسية في الانتخابات واجب وطني، والبعض الآخر لا يراها كذلك. وكذلك: احترام النظام، والتصدي للشائعات

معززات الولاء والانتماء، دون تنمية طبقة بذاتها، دون الطبقات الأخرى. ما عدا ذلك، يؤدي إلى إيجاد هوة اجتماعية كبيرة بين الغنى الفاحش والفقر المدقع، مع انعدام التكافل الاجتماعي، أو ضمور دوره إلى أدنى المستويات. ولن تكتمل الصورة إلا باندماج فعلي، فطري، بين هذه المفاهيم جميعها، لنخلص للوطن النموذج، والمواطن النموذج.

وتبرز هنا مبررات دخيلة لتغير مفهوم الوطن، وأهميته، كالقول المشهور: وطن بلا مال غربة، وغربة بمال وطن..

ويمكن أن نعزي ذلك للعامل النفسي، إذ إن الكدح، في إطار البقعة الجغرافية، التي سماها وطن، دون أن يقدم الوطن أي من مفردات الحياة الكريمة، كلقمة الخبز، وأي من حقوق المواطنة.. والتي ربطت دوماً بالكرامة، لأنها وإن طُعِمَتْ بها الأفواه، فهي مغمسة بالذل والمهانة، ولن تفرز غير أفراد ناقمين، مخربين، وهم عبارة: عن خلايا نائمة، تسهم بفاعلية في خلق الاضطراب، وركوب أي موجة من الفوضى، في حال عدم خروجهم طلباً للرزق في بلاد أخرى، أو توفير أدنى مستويات المعيشة لهم. وهم - إن زادت أعدادهم - سيشكلون، بمساهمتهم السلبية، زيادة في نسبة الجريمة، وهي أول خطوات ضياع الوطن، وتسليمه لعصابات، أو قوى، هي

الخام، والتكنولوجيا، والوفرة في الأيدي العاملة، والوقت، والقدرة التشغيلية في التصنيع. وإيجاد مشاريع أممية، لتشغيل المقدرات الاقتصادية الأساسية، التي تشترك فيها الدولة كاملة، بجميع مؤسساتها، ضمن استراتيجيات وخطط طويلة الأمد، والتي تساهم في تعزيز الولاء والانتماء لأبناء الأمة الواحدة، ضمن حدودها الجغرافية، وتدافع عنها، كمشاريع تشكل الهوية الفردية أولاً، لأنها تمثل تحقيقاً لذاته وذات الوطن معاً. بيد أن أي خلل ضمن هذه الأساسيات، يعني: إحداث خلل عميق على المستوى المعيشي، على اعتباره المحصلة النهائية، أو انعكاساً لنجاح صورة النمى الاقتصادي لأي دولة.

ولعلنا نعزي أهمية الاستقرار السياسي، أو الاجتماعي، بتوازنه، القائم على الاستقرار الاقتصادي، ومدى التقدم فيه، بتباين أوجه نشاطه المختلفة، والتي قد ترتفع بالمستوى التعليمي، أو قد تنتقص منه. لذا كان من الممكن إدخال المستوى المعيشي الأفضل على التعريف الحديث للوطن، بل قد يتعدى ذلك ليقدم احترام الفرد، وكفالتة من البطالة، وتوزيع عادل للدخل، والذي يعتبر أساساً في الحكم، والتنمية، وتحقيق العدالة، ومساواة الفرص، الذي يشكل القاعدة الأساسية في استمرارية أي نظام سياسي، وتثبيت وجوده، مع تحقيق كافة شروط الدفاع عنه، من

العادل للوفرة المالية والازدهار الاقتصادي، هي رفع المستوى المعيشي والتعليمي وزيادة مدى وعي المواطن بحقوقه وتوسيع أفقه، ليتعلم المزيد ويطالب بالمزيد من الفرص المتوهجة في عصر الازدهار الفكري والعلمي والأدبي.

ومن جهة أخرى، نتساءل: هل يؤمن العمل، أو الارتزاق، في بلد غير الوطن، لقمة العيش الكريمة، على اعتبارها مفتاح الكنز؟ وهل يمكن التجاوز عن أي خلل في ميزان الحقوق والواجبات، لضمان أمن الوطن؟؟؟ وقد بقيت معاناة الشاعر تحكي قصته في أبيات ما زادته إلا إيلاماً، من قلب موجوع، ووطن ملتهب بين ثناياه..

بلادي، وإن جارت عليّ، عزيزة
وأهلي، وإن ضنوا عليّ، كرام
بلادي، وأن هانت عليّ، عزيزة
ولو إنني أعـرى بها، وأجوع
ولي كفُّ ضرغام، أصول ببطشها
وأشـري بها، بين الـورى، وأبيع
تظلّ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظهرها
وفي بطنها، للمجددين، ربيع
أجعلها تحت الثرى، ثم أبتغي
خلاصاً لها؟ أنـي إذن لوضع
وما أنا إلا المسكُ، في كل بلدة
أضوعُ، وأما عندكم فأضيع □

- بنظرهم- المخلص من الحالة المزريّة، التي يعيشونها، من تجويع وإذلال..

وعلى الحكومات أن تتعامل مع هذه الفئات إيجابياً، وأن تتلمس أوجاعهم وآلامهم، وأن تحاول - جادة- إعادتهم إلى مدارها، كلبنات صالحة، قادرة على البناء، بل ومشاركتهم مشاركة حيوية في العملية التنموية الإنتاجية.

ولا يمكننا أن نستثني الفئة المتبقية، وهي الطبقة الوسطى، التي تشكلت ضمن تسلسل منطقي، على مدى عصور قد مضت، بعد الإقطاعية والبرجوازية والارستقراطية، وقد قدر لها أن تبصر النور، بعد تقلص تلك، نتيجة لثورات الحقوق المتلاحقة، والتي أضعفت تلك القوى، وقوضت مدى سيطرتها، وهو ما أدى إلى ولادة هذه الطبقة الوسطى. ولكنها، ونتيجة للضغوط المتعاقبة عليها، قد تآكلت في كثير من الدول. وهي، بكافة مستوياتها، تحافظ على أولوياتها باللحاق برغيف الخبز، والتي وافقت كثيراً من السياسات الاستعمارية.

مع تلازم نشر سياسة التثبيط، عن طريق نشر الأمثال في اللغة الدارجة لكثير من المجتمعات، والتي درج على تسميتها لغة الشارع، أو العوام. وهي تمثل إقراراً صريحاً بعدم جدوى المطالبة بالحقوق، أو التغيير الفعلي، الذي يمكن أن يشكل سياسة الخنوع والإذلال وضمان التبعية، لأن حصيلة التوزيع

إن لم تنصت، لن ينصت لك

فاتن محمد

يعد الاتصال من أهم المهارات في الحياة، لأننا نقضي أغلب أوقاتنا في الاتصال مع الآخرين. وتعد القراءة والكتابة والتحدث والإنصات هي أساسيات الاتصال الفعال، فقد أثبتت دراسة قام بها (بولرانكين) حول الوقت الذي يقضيه الإنسان في الأعمال المختلفة في التواصل مع الآخرين، فرأى أنه يقضي:

٤٥٪ في الإنصات.

٣٠٪ في التحدث.

١٦٪ في القراءة.

٩٪ في الكتابة.

فيأتي الإنصات في المرتبة الأولى بينها.

كما يعتبر الإقناع هو المصدر الأمثل للتمييز في العمل، بشكل عام، وفي كل أمر يحاول فيه الإنسان حمل الآخر على اعتناق رأيه، أيا كان الآخر: (مدير، صديق، ابن، زوجة...). ويعد الإنصات هو المهارة رقم واحد في عملية الإقناع.

ومع أهمية الإنصات الكبيرة في الأمرين،

إلا أن الإنسان لم يول الأهمية التي يستحقها، فغالبية الناس يقضون سنوات في تعلم القراءة والكتابة، بل يوصف الشخص الذي لا يعرف القراءة والكتابة بأنه أمّي. كذلك هناك كثير من الناس يتعلمون فن التحدث، ولكن قلة قليلة من تولي اهتماما بتعلم الإنصات. ومع اعتراف غالبية الناس بأهمية وجود من ينصت إليهم، لكنهم يريدونه من غيرهم لهم، وليس العكس. ومرد ذلك إلى أن الإنسان في مسيرة حياته، يصب اهتمامه على أن يفهمه الآخرون، لا أن يفهم الآخرين. فهو يريد إقناع الآخرين، فيركز على التحدث فقط، وإن استمع للآخر، فلن يجيبه. فيكون طوال حديث الآخر، مشغولا بإعداد جواب له. فهو إذاً لا يسمعه حقيقة. مع أن الإنسان لا يستطيع إقناع الآخر، إن لم يستطع تفهمه، وليس فقط فهمه. فهناك فرق كبير بين الفهم والتفهم: الفهم هو بذل الجهد والتركيز في معرفة ما يقوله الآخر، وهو مانسميه الاستماع. أما التفهم، فهو لا يقتصر على فهم الكلمات فقط، بل يتعداها للتركيز أيضا على نبرة الصوت، ولغة الجسد، بشكل عام، وهو ما نسميه الإنصات. فقد أثبتت الدراسات أن التواصل من خلال الكلمات يأخذ ١٠٪، أما التواصل من خلال نبرات الصوت فهو ٣٠٪، والتواصل من خلال لغة الجسد ٦٠٪. ففهم الكلمات لا ينقل لنا من

لبيت، فهي لا تحفزه. علاوة على ذلك، أن الإنصات للآخر هو نفسه حاجة لم تلب عند الكثيرين، فجميع الناس بحاجة لمن ينصت لهم، لكن قلة من الناس - كما ذكرنا - ممن ينصتون.

أنواع الإنصات:

الإنصات للنفس، وهو استكشافها، والاستماع للحوار الداخلي الذي يدور فيها، وإدراك نوعيته: هل هو سلبي، أم إيجابي، ومعالجته إن كان سلبيًا. وكذلك كيفية حل مشكلة، أو قضية، نمر بها. ويؤدي أيضاً لفهم الإنسان لنفسه فهماً حقيقياً: لماذا يميل، ماذا يرغب، بماذا يبذل؟

وهذه النقطة الأخيرة مهمة في التحوار، وهي فهم الذات، قبل محاولة فهم الآخر. والإنسان ينشغل بنفسه وقتاً طويلاً، ولكن بدون وعي. فالتركيز في الاستماع للنفس، وبذل الجهد بذلك، والخلوة بالنفس، هو ما يجعله إنصتاً للنفس، وهنا تكمن صعوبته.

الإنصات للآخر: (أي: عندما يتحدث). وليس سماع الكلمات وفهمها، وإنما الإحساس به، وبمشاعره، واستجلاء ما وراء الكلمات. وهو مهم جداً للمحاور. ففهم الآخر يسهل علينا فهمه، وإمكانية إقناعه، عندما نريد ذلك.

ومهم جداً - عند الإنصات للآخر - إيقاف النوع الأول، وهو الإنصات للنفس،



حديث الآخر، إلا عشر مراده.

ويعد الإنصات أعلى درجات الاستماع، وأما أعلى درجات الإنصات، فهو الإنصات الفعال، الذي لا يقتصر على تفهم الآخر، بل يتعداه لأن يضع الإنسان نفسه موضع الطرف الآخر، فيستشعر مشاعره فيما يتحدث عنه، يستشعر خوفه فيما يخاف منه، ويستشعر حزنه وكدره، يستشعر سعادته وفرحه، يستشعر آلامه وآماله، ويستشعر حاجاته. فهذه الطريقة نستطيع إقناع الآخر بسهولة، لأن كلامنا سيكون ملامساً لحاجاته، ولظروفه. فعندما نستشعر مشاعره، ستكون حلولنا متناغمة معها. ولذلك سمي بالإنصات الفعال، فهو أكثر الوسائل فاعلية في إقناع الآخر. فنحن مهما بلغت خبرتنا، ومهما امتلكننا من مهارة في التحدث، ومهما بذلنا من جهد في إقناع الآخر، لن يقتنع بآرائنا إن لم تلامس واقعهم، وحاجاتهم. فقد أثبتت الدراسات أن الحاجات التي لم تلب لدى الإنسان، هي ما يثيره. أما الحاجات التي

والتركيز فقط على الآخر.

الإنصات للجو العام: أي الإنصات لمشاعر الآخرين، عندما يريد الإنسان التحدث لهم، وإدارة الحديث حسب ذلك. وهو مهم جداً للحوار والإقناع، فمعرفة مشاعر الآخر هو أهم مفتاح لإقناعه.

ويختلف عن النوع الثاني، أن النوع الثاني إنصات لحديث الآخر، عندما يتحدث لنا، واستجلاء مشاعره التي وراءها. أما النوع الثالث، فهو استجلاء مشاعر الآخر وهو صامت، وعندما نريد نحن التحدث. وهو يحتاج للتركيز، وبذل الجهد، وللممارسة.

وإن أهم من يحتاج منا للإنصات له، هم: الأبناء، فهم في أمس الحاجة للحديث للأهل، وكذلك لنصيحتهم. وحين يعرض الأبناء عن الحديث للأهل، فهو اعتراض منهم لطريقة الإنصات من الأهل، لا للإنصات ذاته.

فإنصات الأهل للأبناء بطريقة الإنصات الفعال، التي ذكرناها سابقاً، يهدم كثيراً من الجدران التي بينهم وبين آبائهم، هذا إن وجدت الجدران من أساسها، وذلك إن ابتداء الإنصات منذ الطفولة، بل ويدفع الأبناء دفعاً للحديث لآبائهم.

أن من المهم جداً عند إنصات الآباء لأبنائهم، أن يحاولوا وضع أنفسهم في ظروف أبنائهم، في زمانهم، ومتغيراته، أن يستشعروا لإمالمهم، وآلامهم، ويحاولوا أن يستشعروا

طريقة تفكيرهم، وعقليتهم، فتكون نصائحهم لأبنائهم تلمس واقعهم فعلاً.

وهو ما يقود لنقطة مهمة جداً لدى الآباء، وهي إنصات الأبناء لإرشاداتهم. فالآباء حين يريدون قبولية أبنائهم بقالبيهم الذي نشؤوا عليه، وبعقليتهم التي هي نتاج زمن وفكر، غير زمن أبنائهم، فيكونون - كما يقال - هم ينادون في واد، وأبناؤهم في وادٍ آخر، وهو ما يدفع أبنائهم لطلب النصيحة من غيرهم، والابتعاد عنهم شيئاً فشيئاً.

يقول (ستيفن كوفي): اشتكى لي أحد الأباء قائلاً: "لا أستطيع فهم ابني، إنه لا يريد الإنصات إليّ". فقال له (ستيفن): دعني أعيد ما قلت: أنت لا تفهم ابنك، لأنه لا يريد الإنصات إليك؟ فأجابه: نعم. فأعاد عليه (ستيفن) كلامه مرة ثالثة. فأجابه الرجل بنفاذ صبر: نعم. فقال له (ستيفن كوفي): "أعتقد أنك لتفهم شخصاً آخر، تحتاج إلى الإنصات إليه أولاً"، فقال الرجل: نعم، ولكنني أفهمه، وأعلم ما يمر به، أنا نفسي مررت بالتجربة ذاتها، وأعتقد أن ما لا أفهمه، هو: سبب عدم إنصاته إليّ..

إن ما حاول (ستيفن كوفي) أن يفهمه للرجل، ولكن الرجل لم يفهمه، لأنه لا يريد فهمه، أن ينصت لابنه، قبل أن يطلب من ابنه أن ينصت له. فإن لم ينصت له، فلن ينصت هو له.. □

معالم تاريخية



- على ما تبقى من فُجَّهان

عبدالكریم یحیی الزیباري

ثقافة

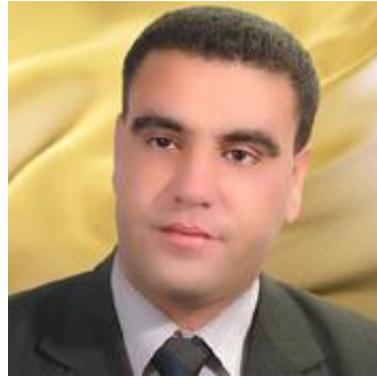


- الكتابة حضور وانحسار
- (الحكاية الشعبية) أهميتها عناصرها ووظائفها
- الفلكلور.. وأهمية توظيفه واستلهامه
- محمود حسانين
- عبد المجيد إبراهيم
- جميلة محمد

(الحكاية الشعبية)

أهميتها عناصرها ووظائفها

الحكايات والأساطير والسير، الأشعار والتهليلات والأهازيج، الأمثال والألغاز والأحاديث الشعبية، وغيرها. ويعتد الأدب الشعبي، بفنونه، فرعاً من فروع المعرفة الإنسانية، التي تعنى بشتى مظاهر الحياة لأمة من الأمم، وأداة التعبير عن فكرها ومعتقداتها وعاداتها، وعن تفاعل إنسانها مع البيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة، ومع الإنسان من جهة أخرى. وهو بهذا المفهوم عبارة عن تنويع لخبرات الإنسان، ومعارفه، وأحاسيسه، ومشاعره، كما يذهب (د. ذهني)^(١).



عبد المجيد إبراهيم قاسم

mejeed40@yahoo.com

والأدب الشعبي لا يعود إنتاجه لفرد، ولا يُعرف مؤلفه، أو مؤلفوه، بل إن الوجدان الشعبي، أو الإبداع الجمعي، شارك في صناعته، وتعديله، وتهذيبه، ليناسب الذوق الشعبي العام. وإذا كانت للفنون القولية تلك المكانة الهامة من التراث الشعبي، فإن الحكاية الشعبية تشغل مكانة مماثلة بالنسبة للفنون القولية، نظراً لما تتميز بها مادتها من البساطة - شكلاً وأسلوباً -، والبراء والعمق، في الوقت نفسه. ولما تملكه من أدوات كافية

يُعرف الأدب الشعبي بأنه كلّ الفنون القولية التي أبدعتها جماعة شعبية، وتناقل أبنائها أشكاله - بوصفه ذخيرة مشاعة بينهم - عن طريق الرواية الشفوية جيلاً بعد جيل، وبأنه جزء هام من تراث الأمم وذاكرتها، وسجلّ خبراتها وإنجازاتها، وحصيلة حكمتها وإبداعاتها. ويتضمن هذا النوع، كأهم مكونات التراث الشعبي، وأحد جوانبه الأساسية: اللغة المحلية،



نبيلة إبراهيم

عليه الرواة، أو يحورون منه. وهو يعبر عن جوانب من شخصية الجماعة.. وهي ترتبط بأفكار وأزمنة وموضوعات وتجارب إنسانية ذات علاقة بحياة الإنسان... وظهرت الحكايات الشعبية المروية، قبل عصر التاريخ بآماد بعيدة، وظلت الشعوب تتناقلها جيلاً عن جيل. وبذا احتلت موقع الصدارة بين الفنون التي تذوقها الإنسان، وعبر فيها عن عواطفه وأفكاره وخيالاته ونظراته. لذا فهي تفسح -إلى حد ما- عن مضمون العاطفة والفكر والخيال والرؤيا، وليس بالوسع تصور شعب لا حكايات شعبية له".

وتنقسم الحكايات الشعبية، أو القصص الشعبي، إلى سبعة أقسام، وفق تصنيف الباحثة (نبيلة إبراهيم)، وهي:



أحمد رشدي صالح

للتأثير في متلقيها، بل وسبر أغوار نفسه العميقة.

يشتمل (القصص المنثور)، بوصفه أساس الفنون القولية، على ثلاثة أنواع أساسية، هي: الأساطير الشعبية، الحكايات الشعبية، السير الشعبية. والحكاية الشعبية، كما يعرفها الباحث (أحمد رشدي صالح)، هي^(٢): "فنُّ القول التلقائي العريق، المتداول بالفعل، المتوارث جيلاً بعد جيل، المرتبط بالعادات والتقاليد. والحكاية هي العمود الفقري في التراث الشعبي، وهي التي نطلق عليها مجازاً الأدب الشعبي". كما يعرفها (د.هادي نعمان الهيتي)، بقوله^(٣): "نوعٌ قصصي ليس له مؤلف" لأنه حاصل ضرب عدد كبير من ألوان السرد القصصي الشفهي، الذي يضيف

والأولياء.

أهمية الحكاية الشعبية، ووظائفها:

إن هذا اللون من الإبداع الشعبي، ما هو إلا نتاج معتقدات وعادات وعواطف الناس، منذ أزمنة قديمة. تعود جذوره إلى خبرات طويلة للشعوب، ويرتبط بأفكار وموضوعات وتجارب متعلقة بحياة الإنسان، أينما وجد. ومن الصعوبة تحديد تاريخ معين لظهور الحكاية الشعبية، إذ ترجع جذورها إلى الحضارات القديمة، كحضارة اليونان، وبلاد الرافدين، وشرق آسيا، وغيرها، وظلّت الشعوب تتناقلها خلال المراحل التاريخية المتعاقبة.

تتمثّل أهمية الحكايات الشعبية، بأنها جزءٌ من معتقدات الشعوب وثقافتهم وعاداتهم، ابتدعها الخيال الشعبي، للتعبير عن حكمته وتجربته في تصوير أحداث الحياة، وأساليب المعيشة. وهي تهدف إلى تحقيق أهداف تربوية تعليمية ونفسية واجتماعية عدّة، إذ تؤدّي دوراً هاماً في تأمين خبرات حياتية مختلفة، مصاغة في بناء قصصي محكم، زاخر بالعبر والقيم، أضفى عليها الإنسان الكثير من الخيال والسحر والجادبية. كما تعدّ وسيلة فعالة -إذا أحسن اختيارها- في إثراء اللغة المحلية، وتنمية الإحساس بالجمال، وأداة جيدة لغرس القيم الثقافية المناسبة وترسيخها، وتأسيس العلاقات الاجتماعية الإيجابية،



١- الحكاية الخرافية: لا سيما تلك التي تتضمن الحكايات السحرية، وحكايات الجان.

٢- حكاية المعتقدات: وهي معتقدات ترتبط بالقوى الخارقة، كخالق عزّ وجلّ.

٣- حكايات التجارب اليومية: وهي الحكايات المستمدة من حياة الناس.

٤- الحكايات التاريخية: وهي التي تحكي أحداثاً تاريخية، وقعت في زمن أجدادنا.

٥- قصص الحيوان: وهو قصص رمزي، يقصد به الكشف عن عيوب الإنسان، من خلال حديث الحيوان أو الطير.

٦- الحكايات الهزلية: وتهدف إلى إشاعة روح النكتة والفكاهة، وتأخذ أحياناً طابع النقد.

٧- القصص الديني: وهي القصص الثابتة في القرآن الكريم، وقصص الصحابة والتابعين

والظلم، كصراع أزلي، والذي يفضي إلى انتصار الخير والعدل والمثالية.

٣) الزمان والمكان: حيث تجري الأحداث، وتتحرّك الشخص. ونعني بالبيئة الزمانية: المرحلة أو المراحل التاريخية التي تصوّرها الأحداث. والبيئة المكانية نقصد بها: المحيط الجغرافي الذي تجري فيها أحداث الحكاية. تبدأ الحكاية الشعبية بمقدمة ثابتة عموماً، مثل: كان ياما كان في قديم الزمان، أو في سالف العصر والأوان، لدى جميع الشعوب، مع بعض الاختلافات البسيطة. أي: لا يحدّد فيها الزمان، وكذلك بالنسبة للمكان في الحكاية، الذي لا يحدّد غالباً.

توظيف الحكاية الشعبية للأطفال

بقيت الحكاية الشعبية مصدراً ممتازاً للكثير من الأعمال الأدبية، التي قدّمت للأطفال، كنماذج تعليمية وأخلاقية. وربما كانت -بحسب الباحثين- أقدم الأنواع الأدبية المقدّمة لهم. وقد دأب الكثير من الرواد الأوائل لأدب الأطفال، على جمع الحكايات الشعبية، وتدوينها، واستلهاها المناسب منها، مع تهذيبها، وتشذيبها، وإعادة صياغتها.

ومسألة الاستفادة من الحكايات الشعبية للأطفال ليست حديثة العهد، فقد جرت محاولات استلهاها من قبل أغلب الكُتّاب منذ زمن طويل، عبر الأجناس الأدبية والفنية،

والحفاظة على الموروث الجماعي، ونقله إلى الأجيال، إضافة إلى دورها في الإمتاع والتسلية والترفيه.

أهم عناصر الحكاية الشعبية:

تتمثل عناصر الحكاية الشعبية في: الموضوع أو الفكرة الرئيسية، والحدث، والبناء والحبكة، والشخصية، والأسلوب، والبيئة الزمانية والمكانية، نتناول منها:

١) الشخصية: عنصر أساس في بناء الحكاية، وشرط رئيسي من شروط نجاحها. وتقدّم الحكاية الشعبية أنواعاً عديدة من الشخصيات، التي تحمل الكثير من الغنى والتنوّع. والشخصية هي^(٤): "مجموعة الصفات الاجتماعية، والخلقية، والمزاجية، والعقلية، والجسمية، التي يتميز بها الشخص، والتي تبدو بصورة واضحة، متميزة في علاقته مع الناس". ولعل فاعليتها عبر الأحداث، تعكس طبيعة تفاعل الإنسان مع البيئة.

٢) الحدث: عنصر أساس - أيضاً - في الحكاية الشعبية، وبه تتحدّد أهميتها، ويتقرّر نجاحها. والحادثة الفنية هي: مجموع الوقائع المتسلسلة والمتراصة، التي تدور حول أفكار الحكاية، في إطار فنيّ محكم. وتمثل الحبكة جزءاً هاماً من الحدث. والأحداث في الحكاية الشعبية -عموماً- هي تصوير للصراع الدائم بين قوى الخير والعدل، وقوى الشر

فشيئاً، بسبب قصور المؤسسات الثقافية -عموماً- عن جمعها، وتصنيفها، ودراستها، وفقاً للأساليب والمناهج العلمية، ثم حفظها ونشرها، كمشروع ثقافي وطني، لا يُفترض تأجيله. كذلك بسبب التطورات الاجتماعية والثقافية والتقنية، وظهور وسائل الإعلام، وأساليب التعبير والتواصل الحديثة، التي تعتمد الصورة الملوّنة والمتحركة. فقد حلّ التلفاز محلّ (الجدّة)، التي كانت تروي حكاياتها الرائعة، وتسحر الألباب بأساليب سردها.

لكن رغم ذلك يظلّ للحكاية الشعبية، بأنواعها، دور بارز في إثراء المعرفة الإنسانية، وستبقى مجالاً هاماً للتعبير عن الأهمية الحضارية لرسالة أية أمة من الأمم، وبالتالي عن الخصائص التي تشكّل هوية الإنسان، وتغذي ثقافته الوطنية □

الهوامش:

- ١) الأدب الشعبي العربي: مفهومه، ومضمونه، د. محمود ذهني، مكتبة الأنجلو المصرية، بلا.
- ٢) الفنون الشعبية، القاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي/ طبعة ١٩٦١، أحمد رشدي صالح.
- ٣) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس/آذار ١٩٨٨، ثقافة الأطفال، د. هادي نعمان الهبتي، ص ١٧٥.
- ٤) فن الكتابة للأطفال، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٨، أحمد نجيب، ص ٥٤.
- ٥) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، مصدر سابق، ص ١٨٦.

وما زالوا حتى اليوم، نظراً لتمييزها بعناصر الجذب والتشويق، وتأثيرها الساحر في النفوس، والذي لا يكاد يضاهاه في ذلك شكل تراثي آخر.. إذ يعيش معها الأطفال، ويتفاعلون أيما تفاعل، ويُستثار فيهم الخيال والرؤى والتصورات.

وتحتاج عملية التوظيف إلى غريزة الحكايات الشعبية، واختيار الملائم منها، وإلى دراستها دراسة واعية ومعقّدة: لغةً، ومضموناً، وقيماً، وشكلاً، ثم تبسيطها بالشكل المناسب، وتقديمها إلى الأطفال، بشكل يلائم الحياة العصرية، ويتكيّف مع متطلبات الحداثة، وبما يضمن المعايير التربوية والفنية والجمالية الخاصة بالمادة المقدّمة للأطفال. يقول د. الهبتي^(٥): "إن من بين الحكايات الشعبية ما يمكن أن يصلح للأطفال، ومنه ما ينبغي إبعاده عنهم، لما يجمله من أضرار. ومنه ما يمكن إعادة كتابته، في مضمون وشكل قشيب".

جدير بالذكر أنّ التراث الشعبي -عموماً- حفل بكلّ أشكال هذا النوع من التراث، لدى جميع المجتمعات الإنسانية، ويكاد لا يُستثنى منه أي شعب من الشعوب الحيّة. وهنالك تشابه كبير - لديهم - في أشكالها، ومضامينها، وموضوعاتها.

لكن الخزن أن الحكاية الشعبية أخذت تفقد مكانتها اليوم، وبدأ تأثيرها يتضاءل شيئاً

تعريف الفلكلور:

يُعرف التراث الشعبي، أو الفلكلور، عموماً بأنه: مجموعة الآثار الفكرية، والمادية، التي تتضمن كل ما خلفه الآباء والأجداد من موروثات، متعلقة بالمنتوج الفكري والثقافي والعلمي والفني. ويشتمل على جميع المعارف، والمأثورات، والطقوس، والمعتقدات الشعبية، والعادات، والفنون، ومن ضمنها: الفنون الشعبية، والحرف، وأنواع الرقص، واللعب، وغيرها.

إلا أن الجانب الفكري، بما يشمله من الأساطير، والحكايات الشعبية، والأشعار، والقصائد، والأغاني، والأمثال، والألغاز، والأحاجي، وكذلك الاحتفالات، وعادات الزواج، والمناسبات، المختلفة، يشكّل خصوصية متفرّدة بالنسبة للفلكلور، أو التراث الشعبي. والواضح، من خلال التعريف، أن مفهوم التراث، أو ما انتقل وحُفظ من شخص إلى آخر، إمّا عن طريق الذاكرة، أو بالممارسة، أكثر مما حُفظ عن طريق السجلّ المدوّن، يشتمل -أيضاً- على: قصص الخوارق، المأثورات، العقائد، والأقوال الساندة بين الناس في كلّ مكان. بالإضافة إلى دراسة العادات والممارسات الزراعية المأثورة، الممارسات المنزلية، وأنماط الأبنية، والظواهر التقليدية للنظام الاجتماعي، وغيرها.

الفلكلور..

وأهمية

توظيفه واستلهامه

جميلة محمد المحمد

إلى أربعة أقسام، هي كالتالي: الأدب الشعبي، العادات والتقاليد، المعتقدات والمعارف الشعبية، الثقافة المادية، والفنون الشعبية.

الأدب الشعبي، وأبرز فنونه:

أولاً- الشعر: يعتبر من أكثر عناصر الأدب الشعبي انتشاراً وتداولاً بين أفراد المجتمع، وقد ساهم -هذا الفن الأدبي- في إثراء التراث الشعبي إسهاماً كبيراً.

ثانياً- الأهازيج الشعبية: شغلت حيزاً مهماً في الأدب الشعبي، وعُدّت بمثابة سجلّ حافل بالأغاني، التي كانت تردّد في شتى المناسبات. وتقوم الأزوجة بوظائف نفسية، لعل أهمها الترويح عن النفس.

ثالثاً- الأمثال الشعبية: يرتبط المثل الشعبي بالكلام العادي، أو اللغة المحليّة الدارجة. وهذا ما جعله أكثر أنواع الأدب الشعبي انتشاراً بين الناس. وهي عبارة عن كلمات، وحكم، تداولتها الشعوب بكلمات قليلة العدد، لكنها ذات عمق في المعنى. ويجتمع في المثل (أربعة) لا تجتمع في غيره من الكلام، وهي: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التشبيه، وجودة الكناية.

رابعاً- القصص المنشور: ويشتمل هذا القصص المنشور على ثلاثة أنواع هامة، هي: (الأساطير الشعبية، الحكايات الشعبية،

ووفقاً لهذه الرؤية، فإن الفولكلور يستوعب كلّ جوانب الإبداع الشعبي، المتمثلة في الأدب، بمختلف فنونه، وفي المعتقدات والممارسات والحرف. وقد عرف (محمد آراكون) التراث بأنه: "انعكاس للعمل البشري، وصورة للنشاط الإنساني، في ميادين الفكر والعلم والآداب والفنون، وللحياة في تعدّد مراحقها، وتنوّع مجالاتها".

كما أن (وليام توماس) قد ميّز بين شكليّ التعبير الفلكلوري، وهما: الشكل الماديّ، كالألآت الموسيقية، والأزياء الشعبية، ورسوم الأقمشة، والسجاد، والتماثيل.. إلخ. والشكل غير الماديّ: كالحكايات، والقصص الخرافية، والروايات الخارقة، والأساطير، وطقوس الخطوبة، أو الزواج، والموت، وغيرها. والفولكلور -عموماً- كائنٌ حيّ، يدلّ على عراقة الشعوب، ويعبر عن حصيلة نتاج مبدعيها، أو جهود أفرادها عبر التاريخ.. إنه يمثّل الماضي الممتدّ إلى الحاضر، والمتداخل فيه، الماضي الذي يعيش من خلال الموروث النفسيّ والماديّ والثقافيّ، الذي تركه الأسلاف.

مجالات الفلكلور:

يرى الدكتور (محمد الجوهري) - حسب التصنيف الذي استحدثه- أن تقسّم موضوعات التراث الشعبي، أو الفلكلور،

٤) توثيق العادات والتقاليد، وتعريف الأجيال الجديدة بالجوانب الإيجابية منها، ودعوته إلى الاعتزاز والتباهي بها.

٥) تنمية العلاقات الإنسانية، والاتجاهات السليمة، بين البشر، بحكم التركيز على الأبعاد الإنسانية، والقيم المشتركة، في تلك العلاقات.

٦) الإمتاع والتسلية، وتنمية روح البحث والاستقصاء.

ولهذه الأسباب، وغيرها، فقد حظي التراث الشعبي بالاهتمام الواسع، من قبل شعوب العالم قاطبة، وسعيها لحفظه وتسجيله، وإجراء الدراسات والأبحاث في مجالاته.

تحديات توظيف التراث الشعبي

يواجه التراث الشعبي - عموماً - مشكلات كثيرة، وتحديات خطيرة، تكمن أهمها في إهمال الكثير من صنوفه وفروعه، وإمكانية تعرضها للضياع والاندثار، وفي أحيان أخرى للتشويه والسرقة. ناهيك عن المشكلات الكثيرة التي يواجهها التراث اللامادي، والمتمثلة في أخطار الزوال والتدمير، بسبب قلة الموارد اللازمة لصونه وحمايته. ومما يزيد الأمر تعقيداً، أن هذا الإهمال، أو التشويه، أو الزوال، يأتي في خضم ما يعيشه العالم من تطورات وتبدلات، قد تشكل عاملاً في تعرُّض قيمه للتحرير،

السير الشعبية) والحكايات الشعبية هي من أكثر فنون الأدب الشعبي العربي انتشاراً، وأهم أنواعها، وهي سبعة أقسام كما صنفتها (نبيلة إبراهيم): الحكاية الخرافية، حكاية المعتقدات، حكايات التجارب اليومية، الحكايات التاريخية، قصص الحيوان، الحكايات الهزلية، القصص الديني.

خامساً- الألغاز الشعبية.

أهمية توظيف التراث الشعبي، واستلهامه:

تعدّ الأهداف الفكرية والنفسية والاجتماعية.. إلخ، والمتوخاة من التعريف بالتراث، وإحيائه، واستلهامه. ويمكن إيراد بعضها، كالتالي:

- ١) إبراز خصوصية شعب من الشعوب، وصفاته المتفردة بين الأمم، والتعرّف على السمات والمزايا التي يتمتع بها.
- ٢) الإسهام في بناء الشخصية الإنسانية، بناءً متوازناً: عقلياً، ونفسياً، ووجدانياً، وسلوكياً، وتهذيب وجدانها، ورفع مستويات وعيها ومداركها.
- ٣) غرس القيم التربوية والخلقية الجيدة في نفوس الأبناء، من خلال النماذج الإيجابية، واخطات المضيئة، في التاريخ.

يمثل الفلكلور المرآة التي تصوّر حياة الشعوب، وتعكس تاريخها الإنساني، وتعبّر -بالوقت نفسه- عن حصيلة خبرات الأفراد لهذا الشعب أو ذاك، سواء أكان فكراً، أو شعوراً، أو أنماط عيش مشترك، وينقل كلّ جيل وميّز من القيم والعادات والفنون إلى الأجيال التالية، ويحافظ على اللغة، والهوية الوطنية، من الضياع والاندثار. والمعروف أن الاستعمار حين كان يخطّط لاحتلال بلد ما، أو القضاء على روح شعبه ولغته، فإنه كان يسعى -أولاً- لمحاربة فلكلوره، وتصفية إرثه الشعبي، الذي يمثّل فكره ومعتقداته. إلا أن محاولاته كانت تبوء بالفشل مع كل مرّة، لأن التراث -دائماً- كان الثروة الوحيدة التي لم تمكن أعدائه النيل منه. إذ إن جذوره الممتدة في الماضي البعيد، وثيقة الصلة بمحاضر الشعوب ومستقبلها، وكلما تفرّعت الجذور؛ كانت الشجرة أقوى، وأكثر قدرة على الثبات، في مواجهة التغيرات والتبدلات □

والتزوير، بسبب الغزو الثقافي، وما استحدثته من القيم؛ التي تحاول أن تحلّ بديلاً عن الثقافة الأصيلة، أو أن تتغاضى عنها، بشكل أو بآخر. وفي الوقت نفسه، إذا أحسن استغلال هذا التطور، وأتقن العمل في مجاله، فإن النتائج ستكون إيجابية حتماً.

إن التراث، بغناه وتنوّعه، يشكّل لبنة هامة في حضارة الإنسان، ورافداً أساسياً من روافد ثقافة الشعوب والأمم. لذا وجب التنقيب في مكوناته، وجمعه وتصنيفه، وحفظه وتدوينه، ثم غربلته وانتقاء المناسب والملائم منه.

ويظهر الاهتمام بالتراث الشعبي من خلال:

أولاً- توظيف التراث الشعبي، بما فيه من الملاحم والحكايات والأخبار والسير والأقاصيص الشعبية، لصالح الأدب عمومًا، وأدب الأطفال بشكل خاص، وإعادة إحياء القصص والحكايات والقصائد والأغاني والنصوص المناسبة.

ثانياً- توظيف هذه الأشكال توظيفاً جيداً، وإظهار المواقف المشرقة فيها، وتشجيع نشر النصوص التراثية، وزيادة الإقبال عليها.

ثالثاً- الاهتمام بالفروع الأخرى من التراث، كالأمثال، والأحاجي، والأقاصيص، والنوادر، والأخبار.

تراجم عراقية

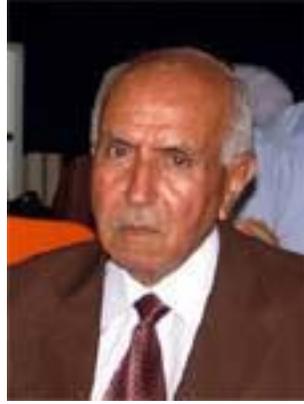


– الأستاذ نشأة غفور

الشيخ فائق نامق

الأستاذ نشأة غفور ..

قامة دعوية كوردية، في ذمة الله



الشيخ فائق نامق

وسرعان ما عادت بي ذاكرتي إلى حيث سنوات طويلة مضت بمدينة كركوك، وأنا برفقة أستاذنا الكبير (أبا هيمن) في العديد من المحطات الدعوية، فقد خبرته رجلاً يعيش لدعوته بوقته وماله وجهده ومستقبله، وتأثرت به كثيراً، فكراً وسلوكاً.

هذا الرجل الصالح المصلح ولد بكر كوك سنة ١٩٣٥، وكان من أوائل الذين انضموا لـ (دعوة الإخوان المسلمين) حين انطلاقها في العراق، وبعدها في كردستان، لإدراكه أن هذه الدعوة المباركة لم تأت من فراغ، ولم تكن تعبيراً عن انقطاع في مسيرة الأمة الإسلامية

لم أتمالك نفسي من البكاء حين سمعت بوفاة القامة الدعوية الكبيرة، (الأستاذ نشأة غفور سعيد)، وهو يؤدي ركن الحج الأعظم (عرفة) في الديار المقدسة، يوم الأربعاء التاسع من ذي الحجة ١٤٣٦ الموافق ٢٣-٩-٢٠١٥، لكن في الوقت ذات شعرت باطمئنان كبير، لأن الله تعالى قد استجاب لدعاء هذا الرجل الرباني الذي كان يتوق شغفاً للقاء الباري في تلك البقعة المباركة، فحظي بما أراد، ودفن بمكة، في ثاني أيام العيد بعد أن صلى عليه آلاف من المسلمين صلاة الجنازة.

وقد وضع أستاذنا نصب عينيه، منذ بواكير انتمائه الحركي، ضرورة النهوض بمتطلبات الدعوة ونشرها، وكان يردد دائماً قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

تدرج رحمه الله في وظيفة التدريس في العديد من المدارس، بالإضافة إلى تقلده مناصب تربوية، وإدراته للعديد من المدارس - المتوسطة والإعدادية -



متنقلاً بين محافظات العراق (الناصرية وبابل)، ومن ثم مدارس كوردستان (كركوك والسليمانية)، منذ عام ١٩٥٨ حين كان معلماً، ولغاية ١٩٩٣ مديراً عاماً لتربية السليمانية، وإحالاته على التقاعد سنة ٢٠٠٦. ولم تعقه ظروف المعيشة والتزامات الوظيفة، طوال تلك السنوات، من القيام بمهام الدعوة إلى الله، والعمل للإسلام، فتراه ينظم وقته ويقسمه بين إدارة الأسر التربوية، والوعظ والإرشاد في المناسبات الدينية، ومحاضراً في الندوات الفكرية، ومشاركاً في المحافل الإسلامية، وانتخب رئيساً لـ(مركز كوردستان للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، ومساهمًا ناشطاً في (مركز الزهاوي للفكر الإسلامي) بالسليمانية، مع تخصيص قسم من وقته للترجمة والكتابة والتأليف.

بقدر ما كانت تواصلًا واتصالًا لمسيرة الدعوة والمصلحين السابقين.

لذا استقر في روعه أن (الإخوان المسلمين) حركة مثلى تعبر عن أهداف الإسلام وبرامجه، وتدفع أفرادها إلى الالتزام بالعمل على تحقيق هذه الأهداف في واقع الحياة، مع الصبر على ما يلقون من محن في سبيل تحقيق هذه الأهداف دون أن يضعفوا أو يتوقفوا عن مواصلة المسير.

وكنت على الدوام أتلمس في شخصية فقيدنا الصبر والمثابرة، والاستقامة وطول النفس، والطيبة والتواضع، لطالما أحسست أن نهضة الأمة وتمكينها ستكون بهؤلاء الرجال ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.



وأسهم فقيدنا في رفد مسيرة الدعوة بالعديد من النتاجات الفكرية والعلمية، فكان ينشر مقالات في مجلة (الثقافة الإسلامية) الصادرة في بغداد من سنة ١٩٥٧ ولغاية ١٩٦١، كما نشر أكثر من ستين مقالة في مجلة (التربية الإسلامية) الصادرة في العاصمة العراقية أيضاً من سنة ١٩٦٨ ولغاية ١٩٧٥.

واستمر يرفد مجلة (الحوار) الصادرة في أربيل عن مكتب الإعلام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني بالعديد من النتاجات آخرها موضوعاً بعنوان (ماذا يبقى من الداعية الحاج سليمان القابلي) في العدد ١٤٩ - ١٥٠، ٢٠١٥، وهو موضوع ظهر فيه مدى تأثره بأستاذه ومربيه (القابلي) المتوفى بكر كوك سنة ١٩٩٥.

ولأستاذنا الراحل نتاجات أخرى تراوحت بين الترجمة والتأليف، ومن أبرز ما ترجم إلى الكوردية: (البيت الإسلامي كما ينبغي أن يكون، للدكتور مقداد يالين)، و(فقه الزكاة، للبرفيسور الشيخ علي القرداغي)، و(معالم في الطريق، لسيد قطب).

ترك فقيد الدعوة والإصلاح الأستاذ (نشأة غفور) بصمات تربوية، وآثاراً خلقية رفيعة، وسمات سلوكية نجبية، فرحة الله عليه وجعله من الذين قال الله فيهم ﴿جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ □

كما ألف العديد من الكتيبات التربوية والنشرات الإرشادية منها (تأملات في سورة يوسف)، و(الإعجاز البياني في سورة يوسف)، و(النظرية التربوية في الإسلام)، و(الأمن الاجتماعي في الإسلام)، و(نظرية الدولة في الإسلام)، و(تأملات في سورة الفتح)، و(تأملات في سورة الحجرات)، و(استخدام المعرفة العلمية في ظلال القرآن)، و(التقوى في القرآن الكريم)، و(كيف يطرق الإسلام أبواب القرن الحادي والعشرين).



ماذا يريدون منا؟

بصراحة

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

الحكام الذين يجلسون على كراسي الحكم، في الشرق الأوسط، يعتقدون أن الله خلقهم ليكونوا رؤساء مدى الحياة، وأنهم أفضل الناس على وجه المعمورة، وأن أسرهم وعوائلهم من خيرة شرائح المجتمع.. وهذا الاعتقاد ينبع من حقيقة مفادها أنه عندما تنتهي فترة ولايات حكمهم، وفق القوانين المستعملة في بلدانهم، يلجأون إلى مبررات غير شرعية لتمديد حكمهم، وبقائهم في السلطة إلى أبد الأبد.. أو حينما لا يرغبون في البقاء في السلطة، أو لم تساعدهم حالتهم الصحية على ذلك، فإنهم يلجأون إلى نقل سلطتهم إلى أبنائهم، حتى ولو كان ذلك على حساب الدستور، وخرقه، وتعديل مواده، لصالح أغراضهم تلك.

ولسنا بحاجة إلى الإتيان بأمثلة على ذلك، فالأمثلة كثيرة ومتعددة. ولسوء الحظ نرى أمثال أولئك الحكام في كل زوايا المنطقة. والسؤال المطروح هنا هو: ماذا يريد هؤلاء الحكام من شعوبهم، وأبناء بلدانهم؟

بساطة، إنهم يريدون أن يقولوا ما قاله (فرعون) لشعبه: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾! إنهم لا يدركون، أو لا يريدون أن يدركوا، أن الحياة اليوم تختلف عنها في عهد (فرعون)، وأمثاله، وأن التغيرات الكبيرة التي حصلت في كافة جوانب الحياة، تصب في مصلحة مراعاة حقوق الإنسان، وتصطدم مع ما في نواياهم من الاستبداد، واستعباد الناس، وتركيعهم أمام أغراضهم المريضة.

إنهم يعلمون جيداً أن أفكارهم واعتقاداتهم لبقائهم في السلطة مدى الحياة، لا تضمن لهم ما يريدون، حتى ولو ساندتهم على ذلك جيوشهم، الأجهزة بأكثر المعدات المتطورة تكنولوجيا وعسكرياً، بل وبالعكس أصبح من اللبديهييات أن مصيرهم لن يكن أحسن من أسلافهم.

صحيح، أن ما يفسح المجال أمام هؤلاء الحكام للبقاء في السلطة طويلاً هو أن شعوبهم تقبل بما يفرضونه عليها من العبودية، ويرحبون باستعبادهم من قبل الذين يرغبون أن يكونوا (أسياداً) إلى ما لا نهاية.

إن التاريخ يخبرنا أن ما يريد تحقيقه هؤلاء الحكام مجرد أحلام لا غير.. لا أحد يستطيع أن يضمن بقاءه في السلطة إلى مدى غير محدود. والكلّ يعلم ما هو مصير الذين يحاولون أن يفرضوا بقاءهم في السلطة مدى الحياة. الكلّ يعلم ماذا حدث عندما اختارت الشعوب الصمت أمام محاولات الحكام لبقائهم في السلطة إلى أبد الأبد.. وعلى الشعوب أن لا تصنع الحكام الطامحين في السلطة بصمتها، وأيضاً على الحكام أن لا يفكروا مجرد التفكير ببقائهم في السلطة إلى ما لا نهاية.. □

أخبار وتقارير



- أخبار
- إعداد: اخرر السياسي
- تقرير: كوردستان ..أزمات واحتجاجات واضطراب سياسي
- إعداد: اخرر السياسي
- تقرير: (المنتدى العالمي للوسطية) يفتتح فرعاً بكوردستان
- الحوار

كوردستان ..

أزمات واحتجاجات واضطراب سياسي

متابعة وإعداد: المحرر السياسي



التظاهرات نظمها تدرسيون وشرائح من موظفي القطاع العام، احتجاجاً على تأخر صرف الرواتب والمستحقات الشهرية، ومناشدة للأحزاب المجتمعة للتوصل إلى اتفاق، يعزز المرحلة السياسية المقبلة في الإقليم. وتوالى بعدها المسيرات

حيثيات الاضطرابات

شهدت مدينة (السليمانية)، مع انعقاد آخر اجتماع للأحزاب الخمسة يوم الثامن من تشرين الأول، بشأن مسألة رئاسة الإقليم، حدوث تظاهرات واضطرابات.



بالمسؤولية عن أعمال العنف وإحراق مقرات الحزب.

وجاء في البيان الذي اطلعت عليه (الحوار): إن "حركة التغيير استغلت هذا الظرف، أيام الجمعة والسبت والأحد، بتحريض بعض الشباب والمراهقين، لتغيير مسار التظاهرات، وأهدافها المدنية، برشق مقرات الحزب الديمقراطي الكوردستاني بالحجارة، في مدن (قلعة دزة) و(سيد صادق) و(كلار) و(حليجة)، ومدن أخرى، وإحراقها".

من ناحيتها، رفضت (حركة التغيير)، في بيان اطلعت عليه (الحوار)، اتهامات الحزب الديمقراطي، واعتبرتها هروباً من المسؤولية.

الاحتجاجية، واتخذت في بعض مناطق (محافظة السليمانية) طابعاً عنيفاً، حيث اشتبك شبان مع القوات الأمنية في بلدة (قلعة دزة)، وهوجمت مقر لـ(الحزب الديمقراطي الكوردستاني)، وأحرق بعضها، بعد مقتل اثنين من المتظاهرين نتيجة إطلاق نار، سرعان ما زاد احتقان الشارع، وامتدت التظاهرات الغاضبة إلى (حليجة)، و(كرميان)، وتطورت إلى صدامات عنيفة، وسقوط قتلى بين المحتجين.

اتهامات واستنكار

وعقب الحادث أصدر (الحزب الديمقراطي الكوردستاني) بياناً، بعد اجتماع مكتبه السياسي، اتهم فيه (حركة التغيير)



كوردستان: (الدكتور يوسف محمد)، ونواب (حركة التغيير)، إلى العاصمة (أربيل). وأعلنت (حركة التغيير) أن المكتب السياسي لـ(الحزب الديمقراطي) أبلغهم بمغادرة مسؤولي الحركة في الحكومة والبرلمان مدينة (أربيل).

ردود أفعال

وفي أول ردود الفعل، قال رئيس البرلمان (الدكتور يوسف محمد)، في مؤتمر صحفي عقده بمكتب البرلمان بـ(السليمانية)، بعد منعه من دخول (أربيل)، إن ما حدث هو انقلاب

من جانبها، استنكرت الأحزاب الكوردستانية، ومنها: (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، في بيانات صادرة عنها، "كل محاولات استعمال العنف والخروج عن المسار السلمي، المكفول قانوناً"، و"إعمال وحدة الصفوف، والرجوع إلى منطق العقل، وضبط النفس، والسلم، والتوافق".

إجراءات وتقييدات

وفي مؤشر على تأزم الوضع الداخلي، وبخاصة بين (الحزب الديمقراطي) و(حركة التغيير)، منعت السلطات الأمنية على مدخل بلدة (التون كوبري)، دخول رئيس برلمان



الصحفي المشترك مع بقية نواب الكتل ورئيس البرلمان بـ(السليمانية)، إن التطورات المتسارعة في (إقليم كردستان)، تقتضي عودة الأحزاب السياسية إلى الحوار والتشاور. مضيفاً: أنه لا يمكن لأي جهة أن تلغي الشرعية، لأنها مستمدة من شعب كردستان.

هذا، وجاءت ردود أفعال متوالية، من غالبية الأحزاب الكردية، وكتلها البرلمانية، مستنكرة تقييد نواب حركة التغيير، ومنع رئيس البرلمان من دخول العاصمة (أربيل).

إقالات حكومية

هذا، وأقدم (رئيس وزراء إقليم كردستان)، في الوقت ذاته، على إقالة أربعة من وزرائه، وجميعهم من (حركة التغيير).

واضح على الشرعية التي يمثلها البرلمان الممثل للشعب.

وأضاف: أن الوضع بكوردستان لن يحل بمنع عمل البرلمان، أو دخولنا، فأَيّ بقعة بكوردستان نستطيع العمل بها، ونحن مستمرين بذلك.

وتابع: أدعو جميع الكتل السياسية العود لمناطق العقل، كون الوضع بكوردستان يتجه نحو التأزم، ونحن لدينا مشكلة اقتصادية، ومعارك ضد (داعش)... نحن بحاجة إلى الحوار.

من جانبه، وصف رئيس (كتلة الاتحاد الإسلامي الكوردستاني): (أبو بكر هلدني)، منع رئيس البرلمان، ونواب حركة التغيير، من دخول (أربيل)، بأنه تصرف غير مقبول. وقال (أبو بكر هلدني)، في المؤتمر

سليم الجبوري) بضبط النفس والتحاور لحل الخلافات، وشاطره في الموقف ذاته رئيس الوزراء الاتحادي (الدكتور حيدر العبادي)، رؤساء أحزاب، وكتل نيابية عراقية.

وعلى الصعيد الدولي، ناشدت عدة دول إقليمية وغربية، وفي مقدمتها (الولايات المتحدة)، كافة الأطراف الفاعلة في كردستان، بتجاوز الخلافات، ووحدة الموقف، والتّركيز على محاربة الإرهاب.

وفي تطور لافت بشأن مسألة رئاسة الإقليم، شدّد المتحدث باسم الخارجية الأمريكية: (جون كيربي)، في إفادة صحفية، تابعتها (الحوار)، بالقول: "بالنسبة لنا (بارزاني) ما زال يمارس دوره، وبذلك نتعامل معه رئيساً لإقليم كردستان". مضيفاً: "يجب أن يتخذ سياسيو الداخل - كردستان - قراراً بشأن ذلك" □

والتقى (نجيرفان بارزاني) بوزراء الأوقاف والشؤون الدينية والمالية والتجارة وشؤون البشمركة، وكلهم من (حركة التغيير).

وقال (سفين دزه يي)، المتحدث باسم حكومة الإقليم: إن "رئيس الوزراء.. طلب منهم ترك مناصبهم. هذه الإجراءات تهدف بالأساس لاحتواء الموقف"، مبيّناً أن (بارزاني) سيعهد لأعضاء حاليين من وزاراته، بشغل المناصب الشاغرة لمرحلة مؤقتة.

وأثناء ذلك أعلنت أحزاب (الاتحاد الوطني، والجماعة الإسلامية، والاتحاد الإسلامي) عن رفضهم لقرار إعفاء وزراء (التغيير) من مناصبهم، وجاء ذلك عقب اجتماع قادة الأحزاب الثلاثة في (أربيل) لبحث التطورات الأخيرة في الإقليم.

وصرح مجتمعون عقب الاجتماع للصحفيين، أن إعفاء وزراء (التغيير) من مناصبهم، إجراء غير قانوني. مضيفين بالقول: "وزراؤنا غير مستعدين لشغل أي حقيبة تابعة للتغيير. نحن نرى أن الحكومة يجب أن تشمل جميع الأطراف".

أطراف عراقية ودولية على خط التهدئة

ودخلت أطراف عراقية على خط تهدئة الأزمة السياسية الناشبة بين الفرقاء في الإقليم، حيث طالب رئيس البرلمان (الدكتور



محمد واني

هل صحيح نحن خير أمة أخرجت للناس؟

آخر الكلام

المفترض أن نكون خير أمة أخرجت للناس، من خلال أمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، بحسب الآية القرآنية الكريمة: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}، ولكن هل نحن فعلاً خير أمة أخرجت للناس، أم أننا تحولنا إلى شر الناس، وأسوأهم، وفي أسفل قائمتهم الحضارية؟ لا شك أن الآية صحيحة، ولكنها مشروطة بـ(الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، بحسب تحليل بعض المفسرين، وهذا الشرط أساس لكل خير، وجامع لكل عمل صالح: من المشاركة في الثقافة العالمية، ومواكبة العلوم، والتكنولوجيا، المعاصرة، إلى الحث على التقارب والتكامل والتخاطب مع الآخرين، بغض النظر عن جنسهم أو دينهم أو مبادئهم. لأنه لا يمكن أن تتم عملية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بدون مشاركة فاعلة في المسيرة الإنسانية، وتحمل المسؤولية بكامل تفاصيلها الدقيقة، لتخفيف المعاناة عن المجتمع البشري، وحل قضاياها. لا أن تنفجر، وتقف في الخلف، تجرّ ماضيها، وتبحث في طيات التاريخ، ما يتعسها ويشقها ويؤخرها عن الركب الحضاري..

لن يكون بمقدور أمة، بهذه المواصفات السيئة، أن تأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر، لأنها غائبة تماماً عن المشهد العالمي. وهذا الغياب أدى إلى ازدياد معاناة البشرية، وتفاقم مشاكلها أكثر، بينما برزت أمم أخرى، أخذت بالمبادرة، وتطورت، واهتمت بالعلوم، والمعرفة، التي هجرناها نحن، واهتمت بحاضرها أكثر من اهتمامها بماضيها، فسادت وقادت وأبدعت وابتكرت، ووصلت إلى قمة الرقي والحضارة، وأصبحت تمتلكنا، شكلاً وصورة، وتقودنا إلى حيث تريد، وكيفما تريد: هي تنتج، ونحن نستهلك. هي تخطط، وتشرع، ونحن نطبق وننفذ. هي تزرع، ونحن نأكل. وفرت لنا كل شيء، حتى قبل أن نطلبه، حتى تحولنا إلى أمة مترهلة، كسولة، تعيش لتأكل، وتتناسل، وتزيد أعدادها يوماً بعد آخر، عالية على المجتمع البشري. هذه الأمة - بمواصفاتها الحالية - لا يمكن أن تكون خير أمة أخرجت للناس، ولا أن تكون هي التي عناها، وقصدها، رب العالمين، في آيته الأئفة الذكر أبداً! □